أصداءُ النُّور

دُنيا من النُّورِ أجلوها وأرْشفُهُا
رَشْفَ الضياء دموعَ الورْد والزَهَر
"شاعر مهجري"

اديب إبراهيم الدباغ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أعرف صديقاً عزيزاً كان قد عقد مع "النورسي" من خلال رسائله -رسائل النور- صداقة متينة، واتخذه صاحباً ومشيراً، فإذا حَزَبَهُ أمرٌ من أمور دنياه أو آخرته، هُرِعَ إلى "الرسائل" يُقَلِّبُ نظره في صفحاتها، وهو يهمس في نفسه: ما تقول يا صديقي في هذا الإشكال، وكيف تراه..؟ أَمِنْ حَلٍّ له عندك..؟ ويظلُّ يجري بين الأسطر والصفحات حتى يلتقي الجواب، ويقع على الحَلِّ فيأنس ويطمئن.

ومنذ نيفٍ وربع قرن وأنا أقرأ "النورسي" وأكتب عَمَّا أجده من أصداء فكره في وجداني ومشاعري، فما توقف نبض الأصداء، ولا غاض نبع العطاء، ففكر الرجل دفق نوراني فيَّاض، وبحر روحه خِضَمٌّ متلاطمٌ ثوَّار، فمهما غرفت منه يزيد ولا ينقص، فلا جيشانه يهدأ، ولا فورانه يبرد، فأنت معه في أمداء من الإيمان والقرآن أبعد مِمَّا كنت تحسب، وأعمق مما كنت تظن.

وغيري جَمٌّ غفيرٌ من أفاضل الكُتَّاب والمفكرين جالت أقلامهم في فكره، وأسهمت في الكشف عن كوامن عقله وروحه، وما زالوا يكتبون، وأغلب الظنّ أنَّ أقلاماً كثيرة سيصيبها اللهاث، وستنكفئ متعبة، وربما جفَّ مدادها قبل أن

تقول كلَّ ما تريد عن فكر الرجل، وسيبقى هذا الرجل لغزاً محيراً من أيّ محراب من محاريب الدين أو الأدب أو الفكر دخلتَ عليه وَجَدْتَ عنده النّور الذي يغشى كُلَّ ديجور وينير كُلَّ مكشوف ومستور.

وهذه الأسطر التي بين يدي القارئ الكريم وإنْ أسميتها "أصداء النور" غير أنها ليستْ خالصَ "الصدى" في صفائه ونقائه، بل هي "رجع الصدى"، بل هي ظِلُّهُ، بل هي بعض ذُبالاتٍ مرتعشات من مشكاته.

وهذه الذبالات كانت قد قيَّدتْ تحت عناوين مختلفة وفي أوقات متباعدة، ومناسبات متغايرة، إلاَّ أنَّ الذي يتحسَّسُهَا لا يخطئه فيها نبض النورسي، والذي يجول في أرجائها لا يخطئه عبق أنفاسه رحمه الله، فالصدى منه، ورجع الصدى إليه يعود.

تقبل اللهم هذا العمل على عيبه ولا تردّه علينا، واشملنا وإياه برحمتك يا أرحم الراحمين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أديب الدباغ

هوامش
على فكر بديع الزمان سعيد النورسي
وسيرته الذاتية

قدم هذا البحث إلى المؤتمر العالمي الثاني لبديع الزمان سعيد النورسي"بديع الزمان سعيد النورسي وإعادة بناء العالم الإسلامي في القرن العشرين" في 27 - 29 أيلول 1992 استانبول

لأنّ ما بيننا وبين "النورسي" بعداً مكانياً وزمانياً فلربما نراه - نحن العرب - أفضل مما يراه المقرّبون منه والملتفون حوله، كأي بناءٍ عالٍ لا يَقْدُرُ عُلُوَهُ إلا الناظرون إليه عن بعد، وأما المحيطون به، والمقيمون حوله، فقد يفوتهم تقدير علوه، واستبانة ارتفاعه.

فالعرب اليوم بإزاء واحد من المفكرين الموهوبين الذين لا يحسن بأحد منهم من المعنيين بشؤون الدين والإيمان أن يتجاهله.

وأنا على يقين بأن رسائله المترجمة إلى العربية ستصبح

مع الزمن مَنْجَمَ أفكار إيمانية يجود على الطالبين بكل جديد ونفيس منها.

ومنذ اثنتي عشرة سنة وأنا أقرأ "النورسي" وأتعلم منه، واسترشد بآرائه وأفكاره فيما يَعُنُّ لي من قضايا الدين والإيمان، وقد خرجت من قراءاتي بالآتي:

إننا بازاء رجل يفور روحه بأسرار الإيمان، ويتفطّر فؤاده بفجر اليقين، ويلتهب رأسه بأفكار العقيدة، وهو قادر على إيقاظ هوامد أفكارنا، وبعث الحياة في مَوَاتِ نفوسنا وشلل أرواحنا، وقد أوتي فضيلة النطق بكل جليل وجميل من الأفكار. وإن شهاباً ثاقباً من سماء روحه كفيل بإشعال هشيم نفوسنا، وجعلها تتلهب شوقاً إلى الله، وتحترق محبةً فيه. ولم يتأتَ له ذلك إلاّ بعد أن خاض تجارب روحية كثيرة، أخصبت كيانَه، وأمرعت فؤادَه، لعلّ من أهمها تلك التجربة الذاتية التي شكلتْ منعطفاً جديداً في مسيرة تاريخه الفكري والروحي، فهو حين أنكر نفسه، ورأى منها ما يريب، استنفر شجاعته، واستجمع كلَّ قوى وجوده لتسعفه في الانسلاخ عنها، والتنكر لها، ولم يتردد لحظةً في نحرها بسكين همته ومواراتها الترابَ والتكبير عليها أربعاً.

لقد فعل "النورسي" هذا حين أشْكَلتْ عليه نفسُهُ، وَغُمَّ عليه هدفه، ولم يعد يعرف مَنْ هو..؟ وماذا يريد..؟ وما هي حقيقة رسالته في هذه الحياة..؟ وما السبيل إليها..؟

وعندما وَضُحَ الهدف، واستبان السبيل، وقُذِفَ في رُوْعِهِ

أنّ رسالته إنما هي إنقاذ الإيمان في هذا العصر المقفر الجديب، ألقى بسعيد القديم وباستشرافه إلى الدنيا في تابوت الموت، وقذف به إلى يَمّ الماضي السحيق، وما لبث "سعيد الجديد" أن نهض بدلاً عنه، نافضاً عنه تراب الدنيا، ليبدأ رسالة إنقاذ الإيمان، بنفسٍ قوية لا تُهْزَمُ، وعزمٍ ماضٍ لا يَكِلّ، وفؤادٍ صارمٍ لا يُضَلُّ.

لقد رأى الرجل بقلبه البصير الصادق، وبصيرته المتوقدة الحادّة، أن سبب ما يعانيه المسلمون من عوابس الخطوب، وكالحات المحن، يرجع بالأساس إلى غياب الوعي الإيماني العميق، وانطفاء العقل المسلم القادر على صنع الأفكار المستنيرة، وتسطح الفهوم والمدارك، وخدر المسلمين بأفيون الدنيا، وفقدانهم للحس بمخاطر ما يحيط بحياتهم.. لذا لم يَرَ من الرجولة والمروءة بمكان أن يستبق الأحداث، ويزج بطلابه الذين لم يبلغ الوعي الديني عندهم مرحلة النضج والكمال، لينافسوا الدنيويين على دنياهم في معارك السياسة، قبل أن يموت فيهم - مثله - أيّ استشراف إليها، ومحبة بها، لأنه يرى أن الدنيا بأسرها لا تساوي قطرة دم واحدة من مسلم تهدر في سبيلها.. فما يريده سعيد الجديد مرحلياً هو أن ينشئ جيلاً واعياً مشبعاً بحقائق الإيمان، مستقلاً بالحمل الفادح، ثابتَ الوطأة، قائمَ الصُلبِ، أيّدَ الركن، يملك الدنيا بيده ولا يدعها تلج إلى قلبه، يرى الاستشهاد في سبيل حقيقة من حقائق الإيمان شرفاً لا يعدله شرف.. إلى هذا الهدف كان

يرمي في كل ما كتبه في "رسائل النور". غير أنه لم ير مندوحة في مجاهدة الأعداء الآتين من وراء الحدود، لأن الأمر هنا لا يحتاج إلى كبير وعي، ولا إلى مزيد علمٍ وفِقْهٍ، فمعلوم من الدين بالضرورة أنه إذا ديستْ أرض المسلمين من قبل الكفار فالجهاد فرض عين على كل مسلم، فسارعَ إلى تشكيل فرق الأنصار من طلابه ومن المتطوعين، وكان ظهير الجيش النظامي في حربه مع الروس، وقد أبلى البلاء الحسن كما شهد له بذلك الأعداء قبل الأصدقاء، حتى إنه جُرح وأُسر وبقي في الأسر حتى قيام الثورة الشيوعية سنة 1917م.

وفي خطبته الشامية ذائعة الصيت لخص "النورسي" أمراض المسلمين، وذكر اليأس والقنوط والشعور بالإحباط كواحد من هذه الأمراض التي داءت بها عقولهم وأرواحهم، فشلّت جوارحهم عن الحركة، وقرَّحَتْ آمالهم وأحلامهم، وجمّدتْ نبض الحياة في عروقهم.

وقد دعا "النورسي" المسلمين لينهضوا ويغالبوا هذا العصر العصي الذي يبدو وكأنه مدسوس على الدنيا في حين غِرَّةٍ من أهلها، ليهدم بمعاوله كُلَّ منارات الهدى، ويطمس على كل ما يمكن للجنس البشري ان يسترشد به من معالم الحق والعدل والخير.

فالتفاؤل والأمل هو ينبوع قوة المسلمين، وسرّ استعصائهم على ضربات الزمن الوجيعة، وهو النور المسكوب من

وجدان الغيب ليشرق بسنائه فوق ليالي اليأس والحزن والألم.

ورسائله كلها تنبض بروح الأمل في مستقبل المسلمين الآتي، إنه يخاطب جيل عصره الذي لا يرى المستقبل، لأن عيونه في قفاه، ويطلب منهم إن لم يستجيبوا له فلا أقلَّ من أن يتواروا ويتركوا الطريق فسيحةً لأولئك القادمين الآتين ببيارق الإسلام الخفاقة، إنهم جيل المعجزة الإسلامية التي لا تنقضي عجائبها، وها أنذا أنقل إليكم صوت "النورسي" وهو يخاطب موتى هذا الجيل وينهرهم قائلاً: "أيها الموتى.. أيتها القبور التي تمشي على رجلين.. أيتها الأجداث المتحركة فوق أديم الأرض.. أنتم أيها المنخورون المهزوزون المنهزمون.. ابتعدوا.. تنحّوا عن طريق الأجيال القادمة.. افسحوا الطريق للأحياء الممتلئين حياةً بروح الإسلام.. وامضوا أنتم إلى قبوركم التي تنتظركم.. تواروا واتركوا المكان لجيل البطولة والأبطال القادمين..".

وفي "بارلا" ذلك المنفى القصي، وجد "النورسي" نفسه رهين غربتين، غربته عن عصره وزمانه، وغربته عن موطنه وأهله وصحابه، حيث لا خل ولا صاحب، ولا سلوة ولا عزاء، ولا مأوى له على ظهر الأرض يؤويه ويضمه إلى صدره، فقد صدّت عنه الدنيا، وجفاه زمانها، فجنح بطبعه الفطري إلى الآخرة، وتوجّه إليها، وامتلأ خياله بصورة العالم الأبدي الذي يرجو أن يكون المكان الذي يؤويه يوماً ما، ويضم عليه جناحي حنانه ورحمته. يقول في وصف

غربته عن عصره، أنقلها عنه بشيء من التصرف:

"ماذا أفعل..؟ إن قدري دفعني إلى هذه الدنيا في زمان غير زماني.. إنه شتاء الإسلام الكابي الحزين.. ولا حيلة لي إلاّ أن أبذر بذور الربيع القادم الذي لا يريد أن يبصره هذا العصر.. وحين تنبت هذه البذور وتتسنبل ويأتي ربيعها أكون أنا قد فارقت الدنيا، لكني سوف، أتنسم نسمات ربيع الإسلام وأنا راقد في قبري.. فاستشراف مستقبل الإسلام الزاهر هو عزائي وسلوتي في غربتي..".

لقد ذاق الرجل ألواناً من الأحزان، وألبس أثواباً من الشجى والآلام، إلاّ أنه كان ستّاراً لشجوه، كتوماً لمصيبته، متلفعاً بعظمته، مستغرقاً في سكينته، منطوياً على آلامه، مستغنياً بنفسه، مستقوياً بربه، مستعلياً على الخوف، قاهراً الجبن والمسكنة، لأنه يرى أن ضعف الفريسة ومسكنتها لا تثير، إشفاق المفترس ورحمته، بل تزيد في شراسته، وتقوي شهيته للفتك والقتل والافتراس، لذا لم يسجل عليه طوال حياته أنه ضعف وهان واستكان أمام جبروت أصحاب الحكم والسلطان.

ولكن كيف استطاع أن يجعل من "بارلا" القصية البعيدة مدرسة تشع منها أنوار "رسائل النور"..؟!

لكي نفهم هذا لابدّ أن أحدثكم عن شخصية "النورسي" القوية المشعة.. فالشخصية القوية - شأنها شأن طاقات الطبيعة وقواها - مجموعة قوى وطاقات خفية غامضة، تُكِنُّهَا

النفس الإنسانية، نحسُّ أثرها وتأثيرها فينا وفي الآخرين، دون أن نعرف شيئاً عن ماهيتها وكنهها. وقصارى القول فيها: إنها هبة إلهية، ومنحة ربانية، يمنحها الله سبحانه وتعالى للصفوة من الناس ـ ومنهم النورسي ـ مِمَّنْ رسم لهم القدر أن يحتلوا مراكز الإشعاع في المكان الذي يوجدون فيه، وهي تمثل الاستثناء من المكرور والعادي من الشخصيات.

فالشخصيات القوية من ذوي البناء المحكم المتين الذين يصعب اختراقهم، يملكون قوى خارقة ـ تنبعث من ذواتهم، وتقتحم أقفال القلوب والعقول، وهم بكتلهم الثقيلة في موازين الرجولة يشكلون مراكز ثقل يشدون إليهم مَنْ يلتقونهم من الناس، فلا غروَ أن يصبحوا طاقات مشعة في المجتمع، يلتف حولهم الناس، ويخطبون ودَّهم، وينصاعون لأمرهم، ولسان حالهم يقول:

إذا كان قد فاتنا أن نرقى رقيهم، فلا أقلَّ من أن نقبس من عظمتهم، وندين لهم بالمحبة والطاعة والولاء.

وهكذا انجذب إلى الرجل مَنْ يخدمه ويقرأ رسائله، ويتتلمذ عليه، ويستكتب هذه الرسائل ويسيح في طول البلاد وعرضها، فيسقي نورها ظِماء الإيمان وجياع العقيدة والإسلام.

ولكن ما هو هدف "رسائل النور"؟ وما المحور الذي تتمحور حوله، وتتموضع إزاءه..؟ انه باختصار شديد "الإنسان".. هذا الإنسان الذي تريد له أن يدرك أن دنياه لا

تقلُّ غرابةً عن آخرته، فكل شئ فيها غريب وعجيب ومعجز، إلا أن مداومة النظر للدنيا، والائتلاف الدائم بينه وبين أشيائها، يجعله يفقد شداهة النظرة البكر، وقوة حدتها ونفاذها، وذكاء لمحاتها، الأمر الذي يدفعه للاستغراق في المألوف من دون إعمال العقل فيه، ظناً منه أن كل مألوف معلوم، وشتان بين أن نألف أو أن نعلم كما ينبه "النورسي".

وكما أن "الدنيا" موجودة يصدمنا وجودها، ونتحسسها بأحاسيسنا وعقولنا، فكذلك "الآخرة" موجودة، وهي ليست بأقلَّ حقاً ووجوداً من الدنيا، ولكن رؤيانا لها، وشعورنا بها - هنا في الدنيا - يكون بالروح الطاهر، والقلب المتبتل الخاشع، وهذا ما تسعى رسائل النور إلى أن تمنحنا إياه.

وإذ كان "الإنسان" هو لبَّ الدنيا الذي تتوجه إليه رسائل النور بمعارفها، فإن الدنيا قشرته، أو بالأحرى إن الدنيا لا شئ، بينما الإنسان كل شئ، ومآله الأخروي هو أعظم الاشياء، وأكثرها أهمية وخطورة.

فما يعتلج في نفوسنا من توق إلى الخلود والبقاء، ونفور من الموت والعدم، دليل على وجود البقاء والخلود خارج عالمنا اكبر من كل دليل وأعظمه،كما يقول "النورسي".

لأن "الإنسان" - كما هو معلوم - لا يشتاق إلى عدم لا وجود له، ولا يرتبط معه بسبب من الأسباب؛ إن هذا الشوق هو عذاب الروح المستطاب الذي يجعل الإنسان ينظر إلى بشريته بشيء من الحزن لأنه سجين هذه البشرية التي كان

مقدراً لها أن توجد على هذه الأرض لتعاني الاغتراب، وتكابد عذابه، وربما إلى هذا إشارة في قوله ρ، وقد سئل عن سنته: "والشوق مركبي.. والحزن رفيقي.. وقرة عيني في الصلاة.." لأنها - أي الصلاة - رسول أشواقه ρ إلى الله تعالى ربِّ ذلك العالم الأخروي البعيد، القريب، الذي نحسه في تجليه على أرواحنا بأنواره وأندائه في لحظات صفاء الروح، وفي أوقات استضاءة القلب بنور الله. كما أن لهذا العالم الغيبي امتدادات نسبية في عالم الشهادة - كما يقول النورسي - تظهر أوضح ما تظهر في الإنسان، خلاصة هذا العالم، وأرقى مخلوقاته، فكيانه - باطنه وظاهره - مرآة كبرى تعكس بنسبيتها شؤون الغيب المطلقة.

فوجود الإنسان النسبي يرمز إلى وجود مطلق،

وعلمه النسبي يرمز إلى علم مطلق،

وقدرته النسبية ترمز إلى قدرة مطلقة،

وإرادته النسبية ترمز إلى إرادة مطلقة،

وهكذا، فكل ما هو نسبي من الصفات عند الإنسان، يقابله ما هو مطلق فيما وراء هذا العالم.

وحيث إن الموجودات - حتى الجامد منها - مفطورة على حب الكمال، والارتقاء من الأدنى إلى الأعلى، ومن المحدود إلى اللامحدود، ومن النسبي إلى المطلق، ولما كان الإنسان أرقى هذه الموجودات من ذوي العقل والشعور، صار همه الانعتاق من سجن النسبية اكبر همومه، وشوقُهُ إلى المطلق

اعظم أشواقه، كما يشير "النورسي" فكيف لا تعاني أشواق المسلم الغربة في هذا العالم الذي تحكمه النسبية، ويهيمن عليه السلب والموت والفناء والعدم..؟.

إذن فكيف الخلاص من براثن عالم السلب هذا..؟ وكيف النجاة من حبوسه الضيقة المحدودة..؟ ولماذا نموت ظامئين ونحن على مقربة من نهر الأبدية العذب..؟ إن الخلاص والنجاة - كما يرى النورسي - إنما يكون بالتعلق بشدة بأمراس الغيب، والاستمساك بقوةٍ بحباله الممدودة إلينا، فباب الغيب العظيم المشرع لكل مشتاق وراغب إنما هو القرآن الكريم الذي يملك المداخل لجميع العقول البشرية على اختلاف نوازعها.

فالوقوف الدائم على مشارف عوالم القرآن سيجعلنا نبصر حبال الإنقاذ النورانية الممدودة إلينا لنتعلق بها بقوة، ونعضَّ عليها بالنواجذ.. انه يخترق بنا أعماق الزمان الأبدي الذي لا نهاية له، ويطلعنا على ما يحتويه من صور الجلال والجمال ليزداد حبنا له، وشوقنا إليه.. فمَنْ يحب الخلود ويسلك إليه سبيل القرآن يخلدْ.. ومَنْ يحبّ البقاء ويتعلق قلبه بالباقي الأبدي الأزلي يذقْ حتماً وقطعاً طعم البقاء، كما يقول "النورسي".

كما أن للغيب صوراً جَمَّةً، وتشكلات لا حصر لها في العوالم والأكوان، وفي الأحياء والجمادات.. فالقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة، ويعلمنا أنه التجلي الأعظم لصفة

الكلام الإلهي المتنزل على قلب سيدنا محمد ρ، وأن الصفات الإلهية الأخرى: القدرة، الحكمة، الإرادة، العلم، الحياة، لها تنـزلاتها وتجلياتها على قلب الكون. فالعوالم والأكوان خاضعة ومستسلمة لهذه الشريعة الكونية التي تعمل بصمتٍ وخفاء في الأشياء. فتقدم الإنسان العلمي يتوقف على فهم دساتيرها ونواميسها، واكتشاف أسرارها كما يقول "النورسي".

لذا غدا، اهتمام المسلم بالكون بديهياً، ورغبته في فهمه والتوغل في أسراره من أوجب واجباته الإيمانية، لأنه بمقدار ما يجهل منه يكون جهله بربه، وبمقدار ما يجهل منه يكون جهله بعقله، وعلى قدر ما يفوته من العلم به يكون مقدار ضعفه وتأخره العلمي.

فالشريعة الكونية ينبغي لها أن تنزل عقل المسلم، وتسري في حسّه جنباً إلى جنب مع شريعة الكلام الإلهي، أي "القرآن الكريم" ومن تداخل الشريعتين ونفاذهما في بعضهما وتفاعلهما داخل عقل المسلم ووجدانه، تولد حضارة الإسلام من جديد كما يرى "النورسي".

غير أنه ومنذ دخول العالم الإسلامي شتاءه الحضاري القاسي، وعقل المسلم لم يعد عقلاً حركياً فاعلاً، إنه في حالة استرخاء دائم، وجمود مستمر، بل هو مريض معتل لم يعد يستجيب للتحدي والاستفزاز، ولم يعد ذلك العقل المشدود دائماً، اليقظ الصاحي أبداً، المتهيئ في كل وقت لالتقاط

إيماءات الكون، واستلام إشارات الطبيعة، ولم يعد عقلاً مغامراً يستهويه المجهول، ويفتنه المستور، حتى لكأنه يخاف الحقائق ويستهولها، فيتحاشاها ويهرب منها، وبذا لم تعد حياتنا الإيمانية وحدها مهددة باليبس والنضوب، بل غدا إدراكنا نفسه مهدداً بالشلل والجمود.

و "رسائل النور" تسعى لكي تعيد إلى عقل المسلم صحوه الغائب، وتدير في مغاليقه مفاتيح الأفكار، وَتُرجِعَ لخلاياه الكسول الحيوية والنشاط، وتشحذَ قدرته على دقة الملاحظة، وذكاء اللمحة، وسعة النظرة والخيال.

وهذه هي أشراط ولادة الفكر الإيماني الحي الذي بشّر به "النورسي" وتحدث لطلابه عن إرهاصاته وتباشيره.

غير أن المفكر الإسلامي الموعود والمرصود لمواصلة المسيرة التي بدأها "النورسي" لا يمكن أن ينجم من فراغ، أو يسقط من هواء، بل لابد له من أرض صالحة يُسْتَنْبَتُ فيها.. ولا أحسب أرضاً صالحة يمكن أن تنشق عن نبتة هذا المفكر الواعد مثل رسائل النور المفعمة بالمنقول الإلهي، والمؤيد والمعزز بالمعقول الكوني، فطينة أرضها مزيج من الائتلاف الحميم بين الشريعتين الكونية والقرآنية، وحين يأتي هذا المفكر - وهو آتٍ لا محال - فإن إحدى الحوادث الكبرى في تاريخ الإسلام والمسلمين تكون قد ولدت، الأمر الذي يوجب على المسلمين الاحتفاء بمولدِهِ كما كانت قبائل العرب تحتفي بمن ينبغ فيها من شعرائها. و "النورسي" لا يرى شيئاً أشدّ

سقوطاً، وأشنع انحداراً، من أن يتجرد رأي الإنسان في هذه الخليقة من أي معنىً الهي، لذلك فليس من شأننا نحن المسلمين - أو من شأن مفكرينا - أن نعقل حقائق الأشياء بالعقل المجرد وحده - كما يريدنا الغربيون أن نفعل - بل بالعقل المستضيئ بالإيمان، وبالبصيرة المستنيرة بالقرآن. فحضارة الإسلام - كما بشّر بها النورسى - لا تبنيها اليوم إلاّ عقول موسوعية كبيرة وعميقة، لا يقوى على اختراق حصونها الفكرية خارق أياً كان، ولا تنشؤها إلاّ أرواح جبارة شامخة، تستعصي في سموها وجلالها على عاديات الأيام، وفادحات الدهور، ولا يعلو بناؤها، ويرتفع شأنها، إلاّ بالإنسان المؤمن البصير الواعي الذكي اللّماح الذي ينذر حياته كلها من أجل أن يسهم في إقامة صرح هذه الحضارة ولو بلبنة واحدة.

والجمال والجلال هما جوهرا هذه الحضارة التي لها ميزتها وتفردها واختلافها عن سائر حضارات الأرض، فالجمال هو روحها، بينما الجلال هو جسمها.. الجمال هو بستانها، والجلال سياجه.. الجمال هو الحق والعدل والخير، وهو الرحمة والصدق والشرف والكرم والمروءة والبر والمعروف وكل المحامد والمناقب، أما الجلال فهو سيفها البتّار الذي يحميها مِمَّنْ يروم اختراق بستانها، والعبث بزهره وثمره.

وفي رسالته العجيبة "الاسم الأعظَمَ" يبين "النورسي"

آثار فاعلية أسماء الله الحسنى في الإنسان والكون والحياة، وآيات تجليها بمعانيها وصفاتها على الموجودات.

ويشير إلى أن اسميه تعالى "الجميل والجليل" يؤثران في الكون، فهو جميل تقطر ألوان الجمال من كل جزء من أجزائه، وصورة من صوره، وهو كذلك جليل مهيب يبعث الإحساس بالرهبة والروع والاستهوال إزاء كبره وسعته وامتداده.. وحضارة الإسلام إنما تبنى على مثال الكون في جماله وجلاله.

ولأن "رسائل النور" هي فلذة من كبد الكون، وقطعة من فؤاده، ترى بعينه وتسمع بسمعه، وتعقل بعقله لذا فلا غرابة إذا ما رأينا الجمال والجلال يسريان جنباً إلى جنب في كلماتها وسطورها، فبينا تكون مغموراً بفيض من جمال المعاني الإيمانية التي يتفجر عنها وجدان النورسي، حتى لتخال أنك بإزاء أديب كبير ذي روح شاعري، إذا به ينقلك فجأة وربما عبرَ سطر واحد إلى عالم الجلال الإلهي الذي يروعنا ويجعل قلوبنا تبادر إلى السجود خاشعة على أعتابه.. وهكذا مهما قلبت من صفحات هذه الرسائل طالعتك فيها رقة في شدة، ورأفة في قوة، ورحمة في عز، وتواضع في شموخ، ولطف في متانة، وعقل في قلب، وقلب في عقل.. وإنك لتحسُّ بقلب "النورسي" الكبير وهو يترنم شجىً ووجداً، وترى دموعه تفيض حزناً ولوعةً على الإنسانية المعذبة بعذاب البعد عن الله، إنه ليستقطر دموع النوع

البشري على النوع البشري نفسه الذي سيواجه عذاب العدم في آخرة الوجود والبقاء، ما لم يتب ويعد إلى الله تعالى. إنه أخو البشر، وشقيق الإنسان، تُبْكيه مأساتُه، أياً كان وفي أي مكان من هذه الأرض.

وهو حين يُذَكِّرُ الإنسان الجحود بمآله المفجع في الآخرة، لا ينسى - في الوقت نفسه - أساس مهمته، ألا وهي تحبيب الله إلى خلقه، قبل تخويفهم منه، اي الجمال ثمّ الجلال.

فالجمال والجلال هما القاعدة الحضارية التي تنطلق منها "رسائل النور" لبناء المسلم الجديد المؤهل للقبول في صف نبلاء الفكر مِمَّنْ تُوْدَعُ بين أيديهم أمانةُ إرساء أسس الحضارة الإسلامية الآتية.

فلطف الجمال مما يحول بين "الأنا" في دواخلنا وبين الكبر والعجب والطغيان، وهيبة الجلال تُنْهضُ "الأنا" من وهاد الضعف والسقوط والذلة والقنوط.. الجمال يغرينا بسمو الفكر، وشرف العدل، وحب الحق، وعشق الفضيلة، وأداء الأمانة، والشغف بالواجب. بينما يفجر الجلال فينا ينبوعاً دَفَّاقاً من القوة، ويهبنا البسالة والشجاعة ويمنحنا الحمية والأنفة والاستعلاء على الجبن والخوف.

وما زال "الأنا" في الإنسان المعاصر، هو المعضلة الكبرى المستعصية على الحل، وهو ما فتئ في طغيانه أو انسحاقه يشكل سوساً ينخر في إنسانية الإنسان، وقد أعيا علاجه الفلاسفة والحكماء، وحار فيه الاخلاقيون

والتربويون. لأن الدواء الذي يقدمونه له هو من صنع "الأنا" المريض نفسه، فيأتي معلولاً لا جدوى منه.

أما الدواء الذي تقدمه "رسائل النور" فهو مزيج من الجمال والجلال الإلهيين، وهو موزون بميزان مَنْ رفع السماء ووضع الميزان، وخلق "الأنا" في الإنسان، وجعله مناطاً للتكليف والسؤال، وهو دواء علته، وبلسم مرضه، الذي يفي بحاجته، ويحفظ له دوام الاستقامة والاعتدال، وباعتداله تعتدل الدنيا، أما إذا فرّط أو أفرط فعلى الدنيا العفاء، لأن "الأنا" في الإنسان منبع كل خير في العالم إذا اعتدل واستقام، ومنبع كل شر في الدنيا إذا جنح وانحرف. وإذا كان ما من جميل إلاّ ويمازج جماله مهابة الجلال، ووقار العظمة والكبرياء، وما من جليل إلاّ وله من الجمال نصيب، فكذلك فان كل ذي حياة - ولا سيما الإنسان - تشع من حياته معاني الأسماء الإلهية الحسنى، وصفاتها الجميلة والجليلة ، كما يرى النورسي.

وبهذا صار"الإنسان" آية كبرى من آيات الله تعالى، لأنه يعكس أضواء هذه الأسماء على ما يحيط به من الموجودات والأناسي، فيصبح كل إنسان مرآة أخيه، يبصر فيها نفسه، كما ورد في الحديث الشريف: "المؤمن مرآة أخيه" ووجب أن نحصي أسماء الله الحسنى ونستقصي فعلها وتأثيرها في أنفسنا لنتخلق بأخلاقها، ونحيا بصفاتها ومعانيها، ولعل إلى هذا الإشارة في قوله تعالى :(وفي أنفسكم أفلا تبصرون).

وحين نبصر، ونتعمق بأبصارنا في النفس الإنسانية، نكتشف دواعي القلق على الإنسان في تقلب قلبه من النقيض إلى النقيض. فقد يكون على بساط الجمال، وفي حضرة أنسه، فإذا به يتحول بين عشية وضحاها عن ذلك ليقع في قبضة الجلال وتحت هيبته وسطوته. فاستغراق النفس بالجمال لا يعني خلاصها نهائياً من جرثومتها الأمارة بالسوء. كما أن طغيان هذه النفس، وانغمارها بالموبقات لا يعني خلوها من أصل التقوى والصلاح.

فلربما استقام المنحرف، وانحرف المستقيم، والى هذا السر يشير ρ بدعائه : "اللّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي عل دينك".

فالنقائض والأضداد من سنن الله في موجوداته - كما يرى النورسي - فالنهار يخفي في ضميره سواد ليل بهيم، والليل يطوي تحت جناحيه إشراقات الضحى وأضواء الظهيرة، وصقيع الشتاء يحتفظ في جوفه ببذرة الربيع، وكل ضعيف يطوي في أحشائه نطفة قوته، وكل قوي تستتر فيه نبتة ضعفه.

فالنورسي يهيب بالضعفاء ألاّ يستسلموا لضعفهم، ففي دواخل ضعفهم قوة، عليهم أن يكتشفوها وينموها، ويحذر الأقوياء من الغرور بقوتهم، ففي قوتهم عوامل ضعفهم التي ستوردهم موارد الهلاك في يوم ما، وما نظنه شراً بقصر أنظارنا قد ينطوي على خير كثير لا نبصره، وقد تكشف عنه

الأيام في قابل الزمان.

وعلى ضوء هذه المقدمات يفسر "النورسي" الكثير من وقائع التاريخ الإسلامي، ويكشف عن أسبابها وأسرارها التي أفادت المسلمين رغم ما يبدو في ظاهر أمرها من كونها وقائع مأساوية كان ينبغي لتاريخ المسلمين أن يتنزه عنها، حتى إنه ليرى؛ أن ما نجم من مذاهب الابتداع لا تخلو هي الأخرى - رغم باطلها - من حبة حق أو حبات، أو جزئية منه أو جزئيات، وبهذه الحبة أو الجزئية اعتقدها أصحابها، وها أنذا أنقل إليكم ما يقوله بهذا الصدد مخاطباً طالب الحقيقة والباحث عنها:

"يا طالب الحقيقة:

إن الشريعة تنظر إلى الماضي والى المصيبة غير نظرتها إلى المستقبل والى المعصية.. إذ تنظر إلى الماضي وما وقع فيه من المصائب بنظر القدر الإلهي، فالقول هنا قول الجبرية.

أما المستقبل والمعاصي فتنظر إليهما بنظر التكليف الإلهي، فالقول هنا قول المعتزلة.

وهكذا تتصالح الجبرية والمعتزلة.

ففي هذه المذاهب الباطلة تندرج حبة من حقيقة لها محلها الخاص بها، وينشأ الباطل عن تعميمها..".

والقدر - مهما اختلفت المفاهيم حوله - فهو ملح الحياة، فمن دونه تفقد الحياة طيب مذاقها في أفواه البشر، ومن غير

القدر ومفاجآته، تستوي أيام الحياة وتتشابه أزمانها، ما كان منها، وما هو كائن، وما سيكون، ويصبح الماضي والحاضر والمستقبل لوناً حياتياً واحداً مملاً، وصورة للعيش واحدة مضجرة، وبذلك يفقد الإنسان اهتمامه بالزمن، وتضيع منه لذة معاناة التوجس والترقب لما يمكن أن يأتي به المستقبل من أحداث السلب أو الإيجاب.

وهذا "الملح الغيبي" هو الذي يمنع بحر الحياة من أن يتوقف ويأسن ويتعفن، فلولا الأقدار لسكنت الحياة سكون الموت، وهمدت همود القبور، فمن صراع أقدار البشر واحتكاك بعضها ببعض، تتجدد شرارات الحياة، وتتوهج المجتمعات، وتنهض الدول، وتقوم الحضارات، ويجري التاريخ البشري نحو أهدافه وغاياته المرسومة والمقدرة.

فالتاريخ في مفهوم "النورسي" يصنعه رجل الساعة، وبطل الموقف الذي يمده القدر بقوة خفية يستطيع بها أن يلوي عنق الأحداث ويسخرها في خدمة هدفه وغايته.

وللنورسي قول في "القوة" قد يبدو غريباً للوهلة الأولى، ولكن عندما نتأمله ونتعمق فيه، ونسبر غوره، نجده من أصدق أقواله، وأكثرها انطباقاً على الحق والحقيقة، وله عليه شواهد من التاريخ الإسلامي خاصة، والتاريخ الإنساني عامة، فهو يرى أن القوى سواء كانت قوىً عقلية أو نفسية أو جسدية أو علمية مادية، حتى لو بدت غير أخلاقية، فأنها تكتسب بعض خواص الحق، فمهما كانت استعمالاتها، وفي

أي سبيل كان تسخيرها فهي تنطوي على خاصية من خواص الحق، وبهذه الخاصية تنتصر ولو كانت بيد الباطل الغشوم، والى هذا السر يرجع انتصار الباطل القوي على الحق الضعيف.

ورغم علمنا أن الحق أو الحقيقة ـ أية حقيقة ـ قادرة على الدفاع عن نفسها، وشق طريقها إلى الحياة مهما كانت السدود والعوائق، إلاّ أننا للأسف الشديد قد نشكل بعض هذه العوائق دون قصد مِنّا.

فهناك فواصل حادة بين الحق الذي نؤمن به، ونرغب بالانتصار له، وبين قصور الجهد الذي نقدمه في سبيله.. بين القمة الشامخة التي يقف فوقها، وبين ضعف الأفكار التي نحاول أن نقدمها للآخرين من خلالها.. بين أن نعتبره موقفاً سياسياً محلياً نخوض به مضامير السياسة، وبين أن نعتقده موقفاً حضارياً عالمياً نقارع به أفكار العالم وحضاراته التي تغزونا وتريد تجميد حضارتنا وتحجيم أثرها وتأثيرها فينا.

فالنورسي منذ قيامه مرةً أخرى في إهاب "سعيد الجديد" وهو يرى ان قضية الإسلام الملحة ليست قضية صراع سياسي يمكن أن يغلب فيه، أو أن يكون مغلوباً، إنما هو صراع حضاري رهيب لا يمكن أن يُغْلَبَ فيه إذا عرفه العالم على حقيقته واعتقده وآمن به.

لذا فهو يرى أن "أوروبة" التي تمثل قمة حضارة اليوم يمكن أن تخفي في رحمها جنين الإسلام إذا هي فهمته

واستوعبته وان هذه الرحم ستنشق عن هذا الوليد يوماً ما ليدرج في أحضان الغرب، وينمو ويكبر ويبلغ أشده.

فإذا كانت "أوروبة" - في إبّان حضارتنا - قد آنست في الشرق ناراً عظيمة فقالت لأهلها:

"امكثوا إني آنست ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدىً" فلما جاءتها قبست من نورها أقباساً وذهبت بهذه الأقباس فأنارت بها عقول أذكياء أبنائها، فإذا بهذه القبسة الحضارية تنمو وتكبر وتبلغ من النضج ما يشاء الله لها أن تبلغ.. ثم تعود إلينا من أبوابنا المشرعة وتتعرض لنا بسحرها ومفاتنها.. فإذا بنا نعرف منها وننكر، فهي قريبة إلى نفوسنا في بعض جوانبها، وغريبة بعيدة عنا في بعضها الآخر.. نعرف منها روحها المغامر الطلعة، لأنه روحنا المفقود.. ونعرف منها شغفها بالمجهول، وشوقها إلى كشف الأستار عن المعارف والعلوم لأنه شغفنا وشوقنا الموؤد.. ونعرف منها علومها في الحياة والفلك والطب والنبات والحيوان، لأن جذور هذه العلوم ممتدة في عقول الأفذاذ من علماء حضارتنا.. ولكننا ننكر منها عقلها المغرور الجحود، وقلبها المتفسق، وجسدها الذي يغلي بالحسيات، وعقيدتها في التجسيد والتثليث.

تُرَى أيمكن أن يعيد التاريخ نفسه، وتعود "أوروبة" الغارقة في وثنياتها من جديد تبحث في " إسلامنا" عن صفاء العقيدة في التوحيد والتنزيه..؟! هذا ما يؤمله "النورسي"،

وهو يرى - أي النورسي - في خبر نزول عيسى عليه السلام إلى الأرض في آخر الزمان، وأنه يكسر الصليب، ويقتل الخنزير، إشارة إلى عودة المسيحية إلى أصول عقيدتها في التوحيد، جوهر الإسلام، وجوهر كل الأديان التي سبقته، وبذلك تستأنف حضارة التوحيد نهوضها من جديد.

فمن المعلوم أن "الدين" هو الذي يقود مسيرة الحضارات في فجر تاريخها الصادق، ويهيمن عليها، ويعمر ضميرها، ويرسي قواعد سلوكياتها وأخلاقياتها، حتى إذا قويت واشتد ساعدها وعلا ضحاها ودلفت إلى ظهيرة عمرها جاء دور العقل لينشر سلطانه فوقها، ويستحكم فيها، ويتحكم بها، وربما صار وثناً يتعبد له الناس من دون الله تعالى.. ثم تمضي في سيرها حتى تميل شمسها نحو الزوال ثم الغروب، فإذا بالعقل يتخلى عن عرشه، ويتركه للحس ليتربع فوقه ويصبح هذا الحسّ سيد العقل وسلطانه بعد أن كان خادماً له.

ولا يعني هذا التقسيم الاعتباري لأدوار الحضارات أن هناك حواجز وفواصل ظاهرة وحادة بين دور ودور. فقد تتداخل الأدوار بعضها ببعض، غير أن طابعاً عاماً يظل يميز الأدوار، ويدمغها بشارته، ويعطي كل جزء زمني منها صفته الغالبة عليه.

والدور الحسي الذي يطغي اليوم على حضارة الغرب، قد فجّر حسيّات الإنسان إلى آخر مداها وطاقاتها، وفجّر مع ذلك حسَّ الأرض والسماء، وأثار خفايا الأرض بترابها ومائها

وهوائها، فإذا بها تتزلزل وتلقي بأثقالها وأسرارها بين يديه ليبتني من عناصرها مدنيته الحسيّة الباردة المفتقرة إلى دفءِ الروح وشفافية الدين والإيمان.

وقد واكب هذه الحسية أدبها وفنها اللذان يزينان للإنسان الاستغراق حتى آخر حبّة حسٍّ فيه في شهواته وملذاته.. ولعلَّ ثمار هذه الحسيّة ترجع في جذورها إلى ذلك التصور الحسّي الشاذ للألوهية والربوبية في العقيدة التي يدين بها أبناؤها.

غير أن للنورسي موقفاً من الحسية يخالف به مَنْ يرى أنها انتكاسة في النفس الإنسانية لا ينبغي للإنسان أن يهبط إليها، لأن الحس والشعور مترشحان عن الحياة بل هما خلاصتها، فليس إماتة الحواس وتعطيل وظيفتها هي طريق الإنسان للارتقاء الروحي كما يرى البعض، بل على العكس من ذلك يرى: أن الحسّ الإنساني بأذواقه وألطافه ومسرّاته وآلامه، إذا وعى وأدرك، وذاق وتألق، وتهذب ورهف وَثقُفَ، صار سبيل الإنسان إلى المعارف الإلهية وطريقه إلى الارتقاءات القلبية والروحية، لأن ما من لطيفة من لطائف الإنسان أو جارحة من جوارحه، إلاّ ويمكن أن تصبح طريقه إلى الله تعالى إذا أحسن توظيفها في الغاية المرجوة.

فالسمع والبصر والفؤاد والعقل، كل هؤلاء موضع الخطاب القرآني، وهي مناط التكليف في الدنيا والمسؤولية في الآخرة.

فالإسلام أو بالأحرى حضارة الإسلام إنما هي وحدة واحدة تبدأ بالعقيدة وتنتهي إليها، فالروح والعقل والحس، يتداخل بعضها في بعض وتمشي جميعها جنباً إلى جنب في كافة مراحل تطورها، لذلك كانت الآخرة - بجنتها ونارها - بناء حيّ تتعذب فيها حواس الإنسان أو تتنعم، كما أن غالبية معجزات الأنبياء عليهم السلام معجزات حسيّة تتحدى أسماع الناس وأبصارهم.

لأن النبي أو الرسول إنما يتعامل في إتيانه بالمعجزة مع مادة الكون المشاهدة والمحسوسة ففي خرقه لبعض النواميس والسنن الكونية ساعة الحاجة إليها ليس أمراً مستغرباً من إنسان هو جزء مهم من هذه النواميس والسنن ولكنه ليس حبيسها ولا سجينها، غير أن الكون هو سجين نواميسه، وحبيس سننه.

فالنبي أو الرسول عليهما السلام قد يكسر بمعجزاته جانباً من هذه الأغلال والقيود التي تكبل الكون، فيستجيب لهذا الكسر أو الخرق - شأن الإنسان الحبيس - استرواحاً وتخفيفاً من بعض قيوده الثقال ولو للحظة واحدة.

وهذه المعجزات وإن كانت قد أعطيت للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، لتحدي أقوامهم، وتوكيد نبوتهم ورسالتهم، إلاّ أن فيها إلى جانب هذا الهدف الأهم أهدافاً أخرى تنطوي - كما يرى "النورسى" - على إشارات علمية، وبشارات بمستقبل علمي زاهر ستحققه البشرية يوماً ما في

تاريخها الطويل، كما أنها - أي المعجزات - ترسل للبشرية من مكانها وزمانها البعيدين حافزات لقواها العقلية كي تطور قدراتها العلمية، وتحاول اللحاق بقدر المستطاع الإنساني بالنهايات التي حققتها المعجزات.

فإذا كان "النورسي" قد ربط هذا الربط الذكي بين المعجزة وبين العلم، إلاّ أنه يرى أن "القدرة" هي روح المعجزة وقوامها، بينما "الحكمة" هي روح العلم وقوامه، فالمعجزة تقع بالأمر الإلهي: "كوني" فتكون، بينما العلم لا يأتي إلاّ بالجهد والصبر والعمل الإنساني الدؤوب.

فالعلم من وجهة نظر "النورسي" يطلعنا على مظهر من مظاهر قوة الله وعظمته الكامنة في لغزه، والجارية في خفاياه، وهو جدير بالمؤمنين قبل غيرهم، لذا يجب أن يكون في كل لبنة من صرحه العظيم قلب مؤمن وحسّ مسلم، وعقل عابد، لا قلب كافر، ونفس ملحد، وقد آن لهم أن يكفوا، أن يكونوا من طالبيه لدى الآخرين، بل من صانعيه لأنفسهم بأنفسهم، فهو الحق القوي الذي يحتاجونه اليوم حاجتهم إلى الماء والهواء.. ولأن العلم هو النَفَسُ المنفوث من وحي الله، والمودع في جوف الكون وضمير الأرض والسماء، صار لزاماً أن يتلقوه باللهفة نفسها التي يتلقون بها وحي الله في قرآنه الكريم، لأن الوحيين كليهما يشيران إلى الله تعالى، ويدلان عليه.

وقلَّ مِمَّنْ كتب في الإيمان مَنْ هداه وجدانه لالتقاط ذلك

النغم الجميل في موسيقى الحياة، والمتجاوب صداه بين نبض الكون، ونبض الإنسان.

وقَلَّ منهم مَنْ وفق إلى رصد هذا اللحن الفريد وتسجيله بشكل دقيق ومجسم في كل أعماله الفكرية والوجدانية كما فعل "النورسي" رحمه الله.

فقارئ كتبه ورسائله لا يحتاج إلى كبير عناء ليلحظ الربط المحكم والشدّ الوثيق بين قلب الكون وقلب الإنسان، حتى ليكاد يحسّ من خلال أحاديثه عنهما - والاستشهاد بمعلوم صفات أحدهما على مجهول صفات الآخر - وكأن الإنسان هو الكون مصغراً، والكون هو الإنسان مكبراً، وبين وجدانيهما تتصادى لحون المحبة والود والتعاون والتساند، لدفع مسيرة الإيمان الكبرى على هذه الأرض نحو هدفها السامي في تقديم فروض الطاعة والعبودية والولاء - مشحونةً بالمزيد من الفهم والإدراك - للخلاق العظيم الذي يدين له كُلٌّ من الكون والإنسان بالوجود والحياة، فيقول معبراً عن هذه الحقيقة:

"أجل لما كان الإنسان خلاصة جامعة لهذا الكون، فإن قلبه بمثابة خريطة معنوية لآلاف العوالم، إذ:

كما أن دماغ الإنسان - الشبيه بمجمع مركزي للبث والاستقبال السلكي واللاسلكي - هو بمثابة مركز معنوي لهذا الكون، يستقبل ما في الكون من علوم وفنون ويكشف عنها، ويبثها ايضاً، فإن قلب الإنسان كذلك هو محور لما لا يحد من

حقائق الكون والمظهر لها، بل هو نواتها".

والنورسي في هذه التجربة الفريدة إنما يفتح الطريق لاحبة لمنْ يريد سلوكها، ويرسي معالم فكر وجداني كوني النظرة، إيماني الملمح، يمكن لكل أديب أو متأدب أو صاحب قلم أن ينهل منه، ويحذو حذوه، وينسج على منواله، في إثراء "أدب الإيمان" ومنحه الأبعاد الكونية التي تعمق رسوخ قدمه، وترفع من علو صرحه، في هذا العصر الذي غدا الكون فيه موضع نظر الإنسان، ومحل فكره، وحقل علمه، ومسار سفره، وساحة تجاربه؛ في طي الأزمان واختصار المسافات.

وقد استطاع النورسي أن يوظف بمهارة فائقة الملاحم الكونية، ودلالاتها الرمزية في تربية "الوجدان الإيماني" الذي يرى في هذه العلوم وتطبيقاتها بعض ما أومأ إليه الدين وأشار إليه منذ أيامه الأولى.

فتربية وجدان المسلم، وتلوينه بلون العصر الذي يعايشه من دون مسخه أو استلاب أصالته، كان وما يزال من أبرز اهتمامات المفكرين والمربين منذ بواكير الإسلام الأولى، وحتى يومنا هذا، وقد سجل التاريخ، أسماء جمهرة كبيرة من هؤلاء المربين في مختلف عصوره وأزمانه، كانوا قد أسهموا بقدر أو بآخر في تشكيل هذا الوجدان وتهيئته لمتطلبات زمانهم.

والنورسي شأنه شأن المربين الآخرين قد كرس معظم جهده لتربية وجدان المسلم في هذا العصر الكوني الذي

يظلنا، ويسيطر على اهتمامات العلماء والمفكرين وقادة الرأي على مختلف مناحيهم واتجاهاتهم، فهو يرفض للمسلم أن يحيا على هامش العصر، أو على حافاته البعيدة منزوياً طلباً للسلامة والنجاة من تكاليفه ومسؤولياته، بل يريد له أن يحيا في قلبه، وفي الحشاشة من لبه، يتأثر به، ويؤثر فيه.

ونقطة الانطلاق في منهاج "النورسي" التربوي تبدأ من "الحياة" التي تتلبس الإنسان، وكلَّ شئ حي، مروراً بالكون، ووصولاً في نهاية المطاف إلى خالق الكون والإنسان: وإنّ إلى ربّك المنتهى.

فالحياة في الإنسان شئ جميل ومقدس، تكتسب قدسيتها من قداسة المانح والمعطي خالق الحياة، فإذا اقتنع الإنسان بقداسة الحياة التي بين جنبيه، واعتقد نفاستها وعظمتها، وطهارة منبعها، حرص عليها، ولم يلوثها أو يدنسها، ولم يفرط بها، أو يتهاون في شأن ترقيتها، أو يحقرها ويهبط بها، أو يحسّها عبئاً ثقيلاً يرغب - أحياناً - بالتخلص منها، أو ينزل بها منازل الحيوان، أو يجعلها في خدمة مَنْ يعطي فيها ثمناً أعلى، أو يركسها وينحط بها إلى درك الدنس والخنا والخسة والجريمة.

فالحياة - كما يصورها" النورسي" -: "هي خلاصة مترشحة من هذا الكون.. والشعور والحسّ مترشحان من الحياة، فهما خلاصتها، والعقل مترشح من الشعور والحس فهو خلاصة الشعور".

فإذن الجهل بالكون يعني جهلنا بالحياة نفسها، كما أن معرفة أي جزء منه تستلزم معرفة شاملة بأسراره، مما يهيئ للإنسان فرصة التعلم، وهكذا يدخل دائرة التعلم اِنْ لم يكن مؤهلاً ليصبح من مبدعي العلماء، الأمر الذي يدفع به إلى روح عصره غير بعيد ولا منكفئ ولا هامشي على زمانه ووقته. ومع ذلك فإنه لا ينبغي أن يغيب عن بالنا بأن "العلم" إنما يأخذنا إلى ما هو نسبي وتقريبي من الأشياء، فمازال العلم حتى هذه الساعة عاجزاً عن اكتشاف أصول الأشياء وحقائق كنهها وماهياتها، وإن كانت له اليد الطولى في اكتشاف علائقها بعضها مع البعض الآخر، اذ لا يوجد في العلوم ما هو مطلق الصحة، ففي الكثير منها أجزاء افتراضية، حتى أن القوانين العلمية نفسها ليست من الحقائق المطلقة.. غير ان النفس البشرية تسلك بنا سبيل المطلق على الدوام، فهي تبحث وتفتش عن "المطلق" الذي يملؤّها عظمة وخشوعاً وجلالاً..

ولا يتصورنَّ أحد - كما ينبه النورسي - أن البحث عن المطلق وانبعاث الأشواق إليه، والتعلق به، من حيث كونه يشكل عنصراً مهماً من عناصر مكونات "وجدان المسلم" يعني الهروب من العقلي إلى "اللاعقلي"، أو الانسلاخ من المنطقي إلى "اللامنطقي" كما يريد أن يوهمنا بعض المحسوبين على العلم والعقل.

فما من حقيقة دينية - إذا ما فحصت جيداً - إلاّ وتنطوي

على عناصر عقلية، كما أن اشد الفلسفات عقلية تشتمل على كثير من العناصر الدينية إذا تعمقنا أصولها وأساسياتها. وفي الغالب ترى أنصار المذهب الوجداني يأتون بأدق البراهين العقلية كما هو مشاهد مثلاً عند "الغزالي" و "النورسي" وغيرهما.

فإبعاد الدين عن الدائرة المنطقية والعقلية مسألة فيها نظر، فالدين الحق الذي لم تصبه يد التحريف، أو تدخله عناصر غريبة عنه، هو دين عقلي لا يجافي العقل، أو يناكف المنطق، وما "علم الكلام" الإسلامي في زمانه إلا مرحلة متقدمة من مرحلة "عقلنة الإسلام وصورة من صور هذه "العقلنة" ما قبل عصر العلم الحديث، وقد أمكن تطوير هذا العلم - كما فعل النورسي - ليلائم العصر العلمي والكوني الذي نعيش أيامه.

ونكاد نلمس صدق هذا الكلام فيما نضح عن فكر "النورسي" من "وجدانيات" ارتفع ببراهينها العقلية حدّ اكثر العقول منطقية، وسما بها سمواً يكاد يلامس صفاء اعظم الأرواح الشاعرية شاعرية، ففي كلامه عن تدفق الحياة وسريانها الموسيقي المتناغم في أوصال الكون، وما تبثه من عزاء في نفوس المغتربين بإيمانهم وعقيدتهم يقول مخاطباً طلبته:

"لو سكن طنين البعوض، وهدأ دوي النحل، وصمتت كل الأصوات، فلا تأسوا ولا تحزنوا، ولا تخمد أشواقكم، أو

تضعف همتكم أبداً.. لأن الموسيقى الإلهية العظيمة التي تجعل بنغماتها الكون في رقص وانتشاء، وتهز بأشجانها أسرار الحقائق، لن تسكن أبداً، ولن تهدأ.. بل تستمر قويةً عاليةً هادرة تعلن عن مبدع الوجود الذي ينتهي إليه كل موجود".

أجل، إنها لن تسكن ولن تهدأ.. وتظلُّ تهتف بكم ومعها صوت النورسي آتياً من وراء الغيب:

"انهض من جديد أيها المسلم العجوز.. شقَّ أكفان عجزك.. وانفض عنك تراب قبرك.. انبعث فتياً ممتلئاً حياة وقوة وعزماً أيها الشيخ الفاني.. عد أيها الغريب المتواري وراء الزمان فقد طال شوق الدنيا إليك.. تنوارَ يا شتاء الروح.. وتفتح يا ربيع العقل.. وازدهري بأزهار الإيمان أيتها النفوس المجدبة.. تهللي يا غربة الإسلام.. وابتهجوا وابشروا يا خدام القرآن.. يا غرباء هذا العصر.. فرسولكم ρ قد قال فيكم: "بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء".

ايحاءات داغستانية[1]

هتاف الأرواح

مهداة إلى أولئك الفتيان الشجعان الآتين من كل مكان إلى أرض "داغستان" ليقيموا فيها معاهد العلم والعرفان ويُعلوا منارات الهدى والإيمان.

(1)

لو أصغيتم بآذان أرواحكم في سجوّ الليالي وفي هدوات الأسحار، لسمعتم هتاف أربعين صحابيا يرقدون فوق روابي هذه المدينة[2] وهم ينادونكم قائلين :

انتظرناكم طويلا .. سألنا عنكم الغادين والرائحين من ملائكة السماء : أين فتيان الإيمان .. متى يقدم حملة القرآن؟.. الشوق إليكم أضنانا.. والحنين للقياكم عذبنا .. وها أنتم اليوم هنا ..فلأرواحنا أن تسعد، ولوحشتنا أن تأنس، ولغربتنا أن تتأسى بكم في هذا القفر الموحش المجدب من صحاب

---

1 كتبت هذه الخواطر سنة 1999-2001 في دربند من مدن داغستان عندما كنت مدرساً في جامعة " دربند" الخاصة.

2 المقصود "مدينة دربند" وهي إحدى مدن داغستان التي يفخر أبناؤها بأن مدينتهم تضم رفات أربعين صحابيا كانوا قد استشهدوا خلال الفتح الإسلامي لهذه البلاد سنة 32 هـ في خلافة سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه.

الإيمان، والممحل من أشقاء الروح والوجدان.

(2)

لا نقول لكم أحرقوا كل شيء يغريكم بالعودة من حيث أتيتم كما فعل طارق بن زياد من قبل ، ولكنا نقول : أحرقوا وجودكم كله ، وأشعلوا النار في أرواحكم ، ثم انثروا حبات هذا الوجود المحترق فوق هذه الأرض، فلا تغادروها - إذا غادرتموها- إلا لتعودوا إليها لأنها صارت جزءً من وجودكم وقطعة عزيزة من كيانكم .

(3)

تتساءلون ما هذه النار التي آنستم وجودها في هذا المكان من بعيد، والتي جذبتكم للمجيء إلى هنا ، ونحن نقول لكم: إنها قبس من نور عظيم كنا قد حملناه في أفئدتنا إلى هذه الأرض، ولكنها اليوم ذبالة مرتعشة وجلة توشك على الانطفاء إلى الأبد، وإننا لنناشدكم -يا أبناءنا البررة- ألا تدعوا هذه الذبالة تخفت وتنطفئ، انفخوا فيها من أرواحكم.. ألقموها قلوبكم وأطعموها عقولكم لتعود تتأجج من جديد وتنير لهذا الشعب مصابيح الهدى والإيمان.

(4)

جئتم إلى هنا مدفوعين بقوة قدرية لا تقاوم.. فأنتم مبعوثو القدر وسفراؤه إلى هذه البلاد، لقد اجتزتم بوابة آسيا الكبرى، وفتحتم الطريق لمواكب الإيمان من بعدكم، ولعل حدس أستاذكم النورسي بنهوض آسيا على صوت الإسلام من جديد

يوشك أن يصدق.. فأنتم هنا هذا الصوت العظيم الذي سيتردد صداه قريبا في عمق أعماق آسيا.. فاهتفوا ولا تنوا عن الهتاف ورجّوا الأرض بهتافكم، وهزوا الأبواب الموصدة في وجوهكم، فمن أدام الطرق فُتح له ولو بعد حين.

(5)

لا تقولوا: ما نحن؟ ومن نحن؟ وأنّى لنا أن نعيد لكلمة التوحيد وهجها فوق هذه الأرض؟ وأنى لنا أن نعمر أرضا خرابا عملت فيها معاول الهدم والتخريب خمسة وسبعين عاما؟ وكيف لنا أن نبذر بذرة الإيمان في أرض قاحلة جرداء؟ وبماذا نشق الأرض ولا رفش ولا محراث؟ ونحن نقول لكم: إن عزّ المحراث فلتكن أظافركم هي المحراث الذي به تحرثون.. وإن عز الرفش فلتكن أسنانكم هي الرفش الذي به تحفرون، ولأن صوت الحياة القرآنية هي التي تتكلم في دواخلكم، فسوف تصغي إليها حبات التراب وجلاميد الصخور، بل ستصغي إليها الأرض والسماء، وكل الكائنات ستأتيكم طائعة منقادة.. ها هي فرصتكم -يا أبناءنا- كي تعلّموا البشرية كيف يمكن للإيمان والإخلاص أن يأتي بالمعجزات، وتعلّموا العالم أن وجودكم هنا هو الدليل الأقوى على عالمية الإسلام وعمومية القرآن.

(6)

لا تستمعوا إلى أولئك المثبطين والمعوقين الثرثارين، وهم يتخافتون متهامسين: أي خيال ضبابي يتشبث به هؤلاء..

وأي حلم وردي يُغرقون أنفسهم فيه.. وأية آمال بعيدة المنال يركضون وراءها؟

ونحن نقول لكم -يا أبناءنا- ليس الخيال هو ما نخافه عليكم، وإنما نخاف عليكم افتقاركم إلى الخيال.. فما أكثر ما بعثه الخيال من الهمم.. وحفز من الأذهان، ودل وأشار إلى خفايا من الحقائق ما زال العقل يدين بها إليه.. وجودنا هنا بل وجودكم أنتم كان حلما من الأحلام، وهو اليوم حقيقة من الحقائق.. وما هو خيال اليوم يكاد يكون حقيقة غدا.. والأمة التي يعقم خيالها يعقم ذهنها ويتبلد وجدانها.

(7)

أحبوا "داغستان" بكل حبة من قلوبكم.. وليكن همكم بها فوق كل همّ.. ومحبتها فوق كل محبة.. فإذا أحببتموها سهل عليكم ما تلقونه في سبيلها من متاعب ومشقات، وسهلت عليكم التضحيات.

يقال: إن البلبل إذا تعشق وردة وأراد أن يغنّيها حبّه غرز شوكتها في صدره وشرع يغني لها أشجى ألحانه وأعذبها.. وأنتم كذلك -يا أبناءنا الأعزاء- دعوا بلابل الإيمان في صدوركم تغني "داغستان" أعذب الألحان رغم ما يوخز صدوركم من أشواكها.. فهي وردتكم ووردة آسيا الوسطى التي يهون كل شيء من أجل أن تسمع عنكم وتصغي لكم وهي ماسة القفقاس المتلألئة في تاج جمالها، لكنها تتأبّى عمن

يرومها إلا المحبين الذين يشفع لهم عندها إخلاصهم في حبها وهداياهم إليها، وهل من هدية هي أثمن من الإيمان الذي تقدمونه إليها وتُحْبُونها به..؟

***

إيحاءات داغستانية :

خبز الخلود !

(1)

لو أعطيتني الدنيا كلَّها .. لو توجتني ملكاً عليها .. لو ملّكتني زمام أمرها.. لو طويتها ووضعتها في جيبي .. لو حملتها على طبق وقدمتها على مائدة روحي ..لو اعتصرتها في كأس وجعلتني أتحسَّاها حتى الثُمالة.. فإنك ـ في الحقيقة ـ لم تفعل شيئا، ولم تعطني سوى قبضة ريح، وحفنة تراب، لا تلبث أن يلفها الزوال ويطويها العدم، بينما يظلُّ لهيب الشوق في أرجاء نفسي مستعراً، وصراخ الجوع إلى خبز الخلود يهزّ أسماع الفضاء، ونازع الفطرة إلى البقاء والأبد يهيج في الروح نواحاً كنواح التكالى.

(2)

أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، صرخ بوجه الكون: (لا أحب الآفلين)(الأنعام:76) إمض عني.. تَنَحَّ عن طريقي ..لا أريدك..ليحترق العالم كله..ليتحول إلى رماد..ليطوه الفناء..فليس هو من همّي..وليس هو مطلبي..مطلبي مكوّن الكون..محبتي لمن لا يزول..قلقي بمَنْ لا يفنى ولا يموت..عبوديتي لأبدي البقاء.

يقذف به النمرود بالمنجنيق، يدركه جبريل عليه السلام وهو يهوي نحو النار المتأججة فيقول له : ألك حاجة ؟

فيردّ أبو الأنبياء : أما إليك فلا !

يقول جبريل : سَلْهُ ..أي سل الله حاجتك .

يقول إبراهيم : عليم بحالي غَنِيٌّ عن سؤالي .[3]

وفي الحديث : (لو قال : نعم لي إليك حاجة لمحي اسمه من ديوان الخلّة)

النورسي رحمه الله يلخص لنا هذا الموقف الإبراهيمي بعبارتين فيقول: "تعلق أيها المسلم بالأبدي تتأبد..وصل أسبابك بأسباب الخلود تخلد " .

(3)

في المعراج يقول الله تعالى عن رسوله الكريم (**ما زاغ البصر وما طغى**) (النجم:17)رغم عظم ما شاهده ρ من مظاهر الجلال والجمال في أرجاء الكون، فقلبه الشريف ظل متعلقاً بصاحب الجمال الأقدس والجلال الأعظم، ولم يلتفت طرفة عين إلى الفانيات الكونية، وبهذا حاز مرتبة المحبوبية والأقربية التي لم يحزها نبيٌّ ولا رسولٌ قبله .

الشوق المضطرم في قلبك إلى معالي الأمور هو دليل حياتك، مَنْ يخلُ قلبه من الشوق يَمُتْ وإن بدا للناظرين حياً.. مَنْ لم يتحول الإيمان في قلبه إلى طاقة من الشوق إلى الله والمحبّة لرسوله لا خير في إيمانه لأنه لا يأتي بخير.. لتكن

3 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن 5 /400.

نفوسكم تواقةً إلى الخلود، وتواقةً إلى الجنة .. لترتفع ببصرها عن الفانيات الهالكات ولتستشرف ببصيرتها على الباقيات الخالدات ..

مجدد القرن الثاني الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز يقول بعد أن لم يبق فوق الخلافة والحكم منـزلة يتوق إليها: " إنّ لي نفساً تواقة ما تاقت إلى شئ ونالته إلا وتاقت إلى ما هو أعلا منه، وهي اليوم شديدة التوق إلى الجنة "[4] ويتوفاه الله بعد هذا الكلام بأيام.

(4)

لأجل الرسالة العظيمة التي يحملها المؤمن كان أفضل مخلوقات الله. وأنفس كائناته، وأحبهم إلى موجوداته، ففي الأثر: إن الجبل ليقول للجبل : سعدت اليوم بخطا مؤمن مشى فوق ظهري وسار بين شعابي..وإن الأرض لتقول للأرض : شَرُفْتُ اليوم بسجدة مؤمن فوق ترابي.. وإن الشجرة لتقول ليت الذي يستظل بظلي ويأكل من ثمري لا يكون إلاّ مؤمناً، وتقول حبّة القمح: ليتني لا أغذو إلاّ جسم مؤمن، وتقول قطرة الماء ليتني لا أروي إلاّ عروق مؤمن.[5]

(5)

في غسق هذه البلاد سطعت شمس إيمانكم.. فهبّوا أملأوا الأقداح الظامئات من أنوار قلوبكم.. أعطوا ولا تأخذوا..

---

4 المناوي، فيض القدير 3 /160.

5 الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن10 /267.

جودوا ولا تبخلوا.. ارسلوا ولا تمسكوا.. تكاثروا تزاحموا عندما يفزع الإيمان.. وانصرفوا راشدين عن مواطن الأجرة والجزاء.. هكذا كان أجدادكم يكثرون عند الفزع، ويقلون عند الطمع.. كونوا عطاءً خالصاً لتحيوا..الشجرة تموت حين تكف عن العطاء.. إيمانكم يضعف ويهزل إذا هو لم يعط من ذات نفسه.. لمن أنفاس الإيمان في صدوركم..؟ أليست هي هدايا الرحمن إليكم..؟ أليس لكل شئ زكاة..؟ فلتكن زكاة إيمانكم مزيداً من العطاء لفقراء الإيمان.. لتكن ذواتكم النورانية كنـزاً مبذورلاً لكل المظلمين في كل مكان..إن الأرض لتهتزّ طرباً لمس أقدامكم وإن السماء لتندى ابتهاجاً بأصوات دعائكم.. والجنة نفسها ترنو إليكم رنو الوامق المشتاق من فوق سبع سماوات.. وملائكة الرحمن تستغفر لكم مادمتم في طاعة الله وفي نصرة دينه.. إياكم والصبوة إلى شهوات الدنيا وملذاتها فإنها تطفئ جذوة الروح.. وتملأ القلب ظلاماً.. والبصيرة عمىً فتحرمون الرؤية إلى حقيقة رسالتكم ومغزى وجودكم..

(6)

الحوار الآتي جرى يوما ما بين أستاذنا " النورسي " وبين رفيقه وتلميذه " الملا رسول ":

قال ملا رسول: على رِسْلِكَ يا أستاذي.. هوّن عليك.. أرحْ نفسك قليلاً.. فنحن كذلك نخاف الله ونخشاه.. أما أنت فتكاد

مرارتك تنشقّ من خشية الله.. أنظر إلى إصبع قدمك كيف تقرَّح بسبب جلوسك الدائم وكأنك في صلاة لا تنتهي..

يجيب الأستاذ قائلاً : يا ملا رسول.. لقد جئنا إلى هنا لكي نظفر بحياة أبدية خالدة بهذا العمر القصير والدنيا القصيرة.. أأعيش هنا كيفما أشاء وكما تهوى نفسي وأنا أسعى إلى الجنة وأطلبها..؟! لا أجرؤ على العيش كما أهوى أبداً ..!

***

إيحاءات داغستانية :

العربية لغة الروح والوجدان

(1)

يحق للعربية أن تفخر بكونها المصطفاة من بين لغات العالم لنـزول القرآن الكريم بلسانها. والقرآن قمة ما فوقها قمة في إعجازه البلاغي، أجمع على هذه الحقيقة بلغاء العربية منذ نـزوله قبل أربعة عشر قرناً وحتى هذا اليوم، فكان لهذه اللغة شرف حمله إلى العالم، وتبليغه إلى البشرية، فعلا قدرها بعلوه، وخلدت على الزمان بخلوده. وإليه يعود الفضل أولاً وآخراً في حفظها من الزوال والاندثار كما زالت واندثرت كثير من لغات العالم.

والعربية ذات حِسٍّ روحاني، يستمدّ روحانيته من جذورها الغائرة في طبقات التاريخ، ومن عروقها الساميّة الضاربة في أصول الديانات والحضارات القديمة، لذا فهي لا تعطي أقصى طاقاتها البيانية إلا إذا كان الموضوع المعالج بلسانها فخماً عالي المعنى، شريف المقصد، ومتصلاً بسبب من أسباب الروح.

ومن هذه الخاصية جاءت قدرتها الفائقة على أن تكون سماءً عاليةً لألمع نجوم القرآن، ولأسمى معانيه فغدا

ارتباطها به ارتباطاً ملحمياً متيناً. فلا يُذكر إلاّ وتذكر معه ولا تذكر إلاّ ويذكر معها ، ومن هذا الارتباط الملحمي بينهما أصبحت علوم العربية وآدابها مدخلاً لا بدّ للدارسين والباحثين في علوم القرآن من الولوج منه، فمعرفة نحو العربية وصرفها وبيانها وبديعها وأسرار بلاغتها هي المدخل إلى أي علم من علوم الدين.

(2)

والعربية تنفرد بخصائص جمالية وفنية قلّما نجدها في لغة أخرى، فهي لغة مطواع بين يدي الأديب أو الشاعر، يشكل من طينة كلماتها ما يتسع له خياله من صور وأشكال، ثمّ ينفخ فيها من روحه فإذا المعنى صورة، وإذا الكلمات لوحة، وإذا قلم الأديب قد قام مقام ريشة الرّسّام. فصوّرَ وجسَّم ولوّن، وهذه القدرة العجيبة على التشكيل والتلوين لدى هذه اللغة دفعت ببعض النقاد إلى تسميتها بـ "اللغة الشاعرة".

ولا أظننا نجانب الصواب إذا ما نعتناها بنعت آخر إلى نعتها الأول فأسميناها " اللغة الساحرة " لما تتمتع به من قوة استحواذ على النفوس، ونفاذ في العقول. وربما إلى هذا الإشارة في قولهρ : (إنَّ من البيان لسحراً)[6]

ويجدر أن نشير هنا إلى أن نعتي " الشعر" و " السحر" كانا المفضلين لدى كفار قريش لنعت القرآن والرسول في بدايات الدعوة الإسلامية. حتى أنّ أعرابياً جافياً يسمع قارئاً

---

6 البخاري، كتاب الطب 5767؛ أبو داود، كتاب الأدب 4356.

يقرأ : (**فاصدع بما تؤمر**) (الحجر:94) فلا يملك نفسه فيقع ساجداً، ولما قيل له:ويحك آآمنت ؟! قال : لا، ولكني سجدتُ لبلاغة هذه الكلمة .[7]

(3)

وما من شك في أن ثمة تشابهاً من نوع ما بين السحر والشعر، فكلاهما ينبعثان من قوى خفية غامضة تكمن فيما وراء المعلوم والمحسوس، وكلاهما يستخدمان ما في الكلمات من طاقات بناء أو تدمير. وكلاهما يؤثران في المتلقي سلباً أو إيجاباً، غير أنهما يختلفان بعد ذلك اختلافاً كبيراً فيما يصدران عنه وينبعثان منه، فالسحر يستمد قواه المدمرة من منطقة ظلامية رهيبة تختفي في أغوار بعيدة من النفس، بينما الشعر طاقة شعورية إنسانية تستخدم اللغة للتعبير عن نفسها، وتتلون هذه الطاقة بلون المشاعر المنبعثة عنها كالتعبير عن الخير أو الشر، والحزن أو الفرح، وليس هناك حالة خامسة يمكن أن تتلبس الإنسان وتلون مشاعره، وكل الأغراض الأخرى التي قيل فيها الشعر لا تعدو أن تكون فروعاً من أصول تلك الأحوال الأربع.

(4)

---

7 انظر الكلمات للنورسي ص 346.

ولغة القرآن تعلو على هذه المشاعر البشرية جميعاً، ولا تلتفت إليها وهو ـ أي القرآن ـ غير معني بأهواء النفس البشرية أو بالتعبير عنها، لأنه ليس شعراً ليفعل ذلك، ولا سحراً أسود ليستثير هذه المشاعر في الهدم والتخريب .

فالقرآن مهتم بقضايا الإنسان من حيث كونه كائناً كونياً له رسالة هادفة هي إعمار الحياة والارتفاع بها في مراقي الارتقاء حتى تبلغ مستويات عالية من الجمال المادي والمعنوي .

ولما كانت " العربية " روحية المنبت في أصولها التاريخية الأولى فلا جرم أن يغشاها سر من أسرار الروح، ويكتنفها بعضٌ من قواه الآسرة، والنافذة في النفوس، الأمر الذي جعل القريشين يتوهمون أن ما يسمعونه لا يعدو عن كونه شعراً أو سحراً لما كانوا يحسونه عند استماعهم له ـ أي القرآن ـ من تأثير يأخذ بقلوبهم وعقولهم.

(5)

وكثرة الوجدانيات في تراث العربية يرجع في جملته إلى خاصيتها الروحية، فهذه الخاصية تغري المنشئين كتّاباً وشعراء أن يستثيروا الجوانب الروحية والوجدانية. فيما يبدعون من نثر أو شعر. فما تعرفه العربية من الشعر والشعراء يكاد يزيد على ما تعرفه الدنيا منهما، ولهذا نستطيع القول : إن العربية لغة الوجدانيات لا ينازعها في ذلك منازع.

(6)

وحين نقول : إن " العربية " لغة الوجدانيات، فنعني بذلك أنها لغة الحياة فالحياة أخصب وأوسع من أعظم الأفكار والفلسفات ، والوجدان أعلق بالحياة من كل فكر وألصق بها، فالوجدان والحياة صنوان لا يفترقان.

فنحن نعيش الحياة بالوجدان قبل العقل، ونحياها بالشعور والحسّ قبل الفكر، ومن خلال الوجدان نلمس أجمل ما في الحياة من معانٍ، ومن خلاله نستطيب الحياة رغم آلامها وأحزانها ونستزيد منها، كما يقول أبو العلاء المعري :

تعَب كلها الحياة وما عجبي إلا من راغبٍ في ازدياد

(7)

وقد قدر للعربية أن تنشأ وتنمو في أحضان الشرق مهبط الديانات ومواطن الأنبياء والرسل، فأخذت وأعطت ، وتأثرت وأثّرت، وكان لها شرف الإسهام في إغناء وجدان الشرق وفي تشكيل نوازعه الروحانية، وبالمقابل فقد تأثرت بما كان يفيض عن هذا الوجدان من أسفار الحكمة والشعر والقصص والأساطير والمراثي والملاحم والبطولات .

ومن خلال هذا الشرق الخصب الموار بنوازعه الروحية والدينية مضت العربية تشقّ طريقها عبر هذا الزحام الهائل،

فمضت تتصقّى وتعذب وترقّ حتى بلغت قمة نضجها وجمالها على لسان خلّص أبنائها من قريش معدن العرب والعروبة. ثم توّج هذا النضج والجمال نـزول القرآن بلسانها، فغدت بذلك صلة الوصل بين وجدان القرآن ووجدان العالم في كل زمان ومكان .

***

إيحاءات داغستانية :

سلاماً ياليل " دربند "

(1)

سلاماً ياليل "دربند"..سُقيتَ الرَّوح والريحان..ورويتَ الودَّ والتّحنان..يا ظلَّ الكون على أكبُدِنا الحَرَّى ..ويا فَيْءَ الزمن على أفئدتنا العطشى .. طال دربنا ..كلَّتْ أقدامنا ..استوحشت أرواحنا وآدتْ قلوبنا حتّى التقيناك، فإذا بحادي الركب يهتف بنا: هنا نَحُطُّ رِحَالَ العشق، وننصب خيام الهوى..تحت جنح هذا الليل المضمخ بأريج الصحاب [8]، والمعطّر بمِسْكِ دمائهم، والنّديّ بندى أرواحهم، والمترع بنور إيمانهم ..!

ناغِنَا..سامِرْ قلوبنا..تعطّفْ علينا.. آنِسْ غُرْبَتَنَا.. دَعنا نستظلُّ بظلك.. ونتفيأ بَرْدَ فيئك.. تدّفقْ حناناً علينا.. تساكبْ لطفاً فوقنا.. تَوَاجَدْ عشقاً نحونا.. نحن أحفاد أولئك الراقدين تحت سمائك الناشرين الطّيبَ في أنحائك..!

(2)

يا ليل "دربند" لا تخش ظمأً بعد اليوم..فبدموع الوَجْدِ مِنَّا سنسقي صحاراك الظامئات، ونروي زهراتِكَ المصوحات..

---

8 هم شهداء الصحابة الأربعين الراقدين فوق روابي " دربند "(داغستان).

وبأنين التائبين النادمين منا ستظلك سحائب الرحمة وتتنـزل عليك لطائف الودّ، وبهتاف المحبين المحترقين بحبهم ستتفتح أبواب السماء وتهبط عليك الرحمات وتغشاك السكينة، أبداً لن تجفُّ مِنَّا العبرات.. لله نحزن..وله نسكب الدمع.. وإليه نجأر بالدعاء.. وعلى أعتابه نمرّغ الوجوه.. ويذوب مِنَّا الوجود.. وعلى "باب الأبواب" نرابط نحمي "كلمة الله" من الضياع ونصونها بالمهج والأرواح..!

(3)

يا" باب الأبواب" [9] ما اكثر ما اصطرعت عليك شعوب، والتحمت من أجلك أقوام، وسالت على بابك دماء..والتقت من خلالك أديانٌ وحضارات..كلُّ شئ فيك تاريخ ناطق أو إشارات إلى تاريخ..التراب..الأحجار..الصخور..القبور..القلاع..الحصون ..البحر..الجبل..الأرض.. السماء.. بل الإنسان نفسه، إنه تاريخ متحرك من مجموعة أخلاط عجيبة من الأقوام والشعوب واللغات والأوطان انصهرت كلّها في أتون الزمن فَتَخَلَقَ منها إنسان جديد هو خلاصة مصطفاة من هذه الأخلاط والأمشاج !

---

9 تسمي كتب التراث مدينة "دربند" بـ " باب الأبواب" وربما لأهميتها وكونها الباب الذي يدلف منه القادمون من أوربا إلى آسيا الوسطى وبالعكس/ انظر معجم البلدان لياقوت الحموي.

(4)

على أعتاب " باب الأبواب " تُسْكَبُ العبراتُ.. وتذوب النفس حسرات.. ويتمزق القلب حزناً وأسىً.. على هذا الباب صُلِبَ الإيمان مرةً ولكنه لم يَمُتْ.. تناوشته سهام الكفر فأثخنه الجراحُ ولكنه لم يمتْ.. جرّعوهُ الصّابَ والعَلقَمَ فتهاوى مُدْنفاً ولكنه لم يمت.. حاصروه.. حرَّقوا كتابه.. سجروا به تنانير حقدهم لكنه ظلَّ حياً في القلوب ولم يمت.. لأنه حياة أقوى من كل حياة..وحياة فوق كل حياة..!

(5)

يا ابن " دربند " في أغوار روحك يسكن تاريخ أرضك.. روحهُ المعذَّبَةُ مسكوبةٌ في روحك.. إنه يغورُ بكل آلامه في أعماقك.. يخصب حياتك لكنه يلونها بالأسى.. يشكل عقلك لكنه يثقله بالهمّ.. لا يَمُدُّكَ إلاّ بمرارات تجاربه، ولا يمنحك إلاّ دموية حكمته..!

تحرَّرْ من صغوطه عليك.. إنسلخ عنه.. عِشْ خارجه.. ارتفع فوقه.. أُسْمُ عليه.. أسْمُ وارقَ حتى تلامس سماواتِ القرآن.. هناك التمس لك تاريخاً لا يُبْليهِ الزمنُ.. ولا يُعَتّقُه القِدَمُ.. ولا يلتهمه العدم.. هو للروح بهجة لا تنقضي.. وللقلب عيدٌ لا يحولُ ولا يزول..!

***

إيحاءات داغستانية :

على بوّابة " داغستان "

(1)

إفتحي ياسيدة القفقاس..يا أليفة الدُّجى ورفيقة الليالي الطوال.. إفتحي يا معصوبة العينين.. يا مكبّلة الروح..يا مقيدة الفكر..!

يا لَعَيْنَيْكِ الظامئتين إلى ضياء الفجر ما أشدَّ حِلْكَةَ ظلامهما.. ويا لرُوحِكِ المتطلعة إلى الانعتاق ما أثقل ما تَرْسِفُ فيه من قيود.. ويا لَفِكرِكِ الوَثّاب ما أقسى ما يعاني من الأباطيل..!

افتحي.. من مسافات الشوق البعيدة أتيناك.. من آفاق الحنين القُرآني قدمنا إليك..النور ملأ ارواحنا.. والمحبة ملأ قلوبنا..ونداء الإيمان ملأ أصواتنا..

افتحي..هذه سواعدنا تُوالِي الطَّرْق على بوابتكِ.. وأكّفُنا تَدُقُّ بقوةٍ فوقَ جدران ليلكِ..!

افتحي.. فعلى بوابتكِ ـ لو تعلمين ـ قرآن وإيمان وفتيان شجعان، لو وقف هؤلاء الثلاثة على سور الصين لجعلوه دَكاً..!

(2)

افتحي يا دُرَّةُ القفقاس.. يا جوهرة التاريخ الدفينة في ذاكرة الإيمان.. لا ترتابى.. ما جئنا لِنَرْزَأكِ بمالٍ أو ولد.. ما أتينا لنأخذ بل لنعطى.. نحن الريُّ لظمأ قلبكِ، والقُوْتُ لمجاعاتِ روحكِ.. ونحن الفِدَاءُ "لكلمة الإيمان " إذا تَحَرَّكَتْ بها شفتاكِ.. قوليها أم تُرَى أنَّكِ نسيتها..؟!

إكسرى ما وُضِعَ على فمكِ من أقفال.. اهتفي بها ملأَ فَمِكِ.. فلو هتفتِ بها عادت أرضُكِ ربيعاً، وسماؤكِ عيوناً منهلةً بالبِشْرِ والنور والفرح الإلهى، ليغسل كُلَّ ما عانَتْ منه روحكِ من أوجاع، ويُضَمِّدُ كل ما شكا منه قلبكِ من جراحات..!

(3)

مُدَّ يدَكَ يا بطل" داغستان ".. ضمُمُّها إلى أيدينا.. دُقَّ معنا الأبواب..

لِتُعَانِقْ روحكَ أرواحنا.. لتَحْفِزْ هِمَّتُكَ هِمَمَنا.. ولتُلْهب إرادَتُكَ الجبارة إراداتنا.. إننا نسمع صوتك القوى يَتَرَدَّدُ صداه في فضاءاتِ أرواحنا.. إنه يحدونا في مسيرتنا الإيمانية.. يا شيخنا الجليل.. نادها.. قل لها من نحن وماذا نريد..؟

ها أنت ذا تخاطبها.. إننا نسمعكَ تقول: أنا الشيخ شامل أناديك فاستمعى إلىَّ.. افتحي لهم كُلَّ الأبواب.. إننى أباركهم من وراء الغيب.. إنهم فتية الإيمان الذى انشق عنهم كهف نور.. على عين القدر صُنِعُوا.. وفي كنفه نشأوا.. ضمائرهم

تشع نوراً.. أرواحهم تتألق صفاءً ونقاءً.. أرضهم سماء.. وسماؤهم قرآن.. وليلهم مذاب ضراعة ودعاء.. ونهارهم جدّ وعلم وعمل ضمّيهم إلى أحضانِكِ فهم نِعْمَ الأبناء لِنِعْمَ الأمهات..!

(4)

أنتم أيها الغرباء الحاملون غربتكم فوق كواهلكم.. اغتربوا ففي غربتكم سرٌّ قوتكم.. تفرَّدوا..توحدوا.. فتفردكم سؤال ملحّ يوخز أفهام الآخرين.. إنمازوا فتميزكم لغز يحفز العقول لكي تسبر غوره وتفهم سره.. أيها الحاملون غربة الإسلام إلى أرض "داغستان" طوبى لكم وبشراكم قولهρ : (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء)[10] فطوبى لكم هذه الغربة المحببة.. إنها آية إيمانكم في هذا العصر.. وعلامة الصواب بين أخطاء العالم وخطاياه.. ولكن انتبهوا.. فما لم تكن قلوبكم هي التي تتكلم من خلال شفاهكم فلن تستمع إليكم "داغستان".. وما لم تهبط أرواحكم على أطراف ألسنتكم ساعة تخاطبونها فلن تصغي إليكم.. لقد أصغت كثيراً حتى ملّت، واستمعت لآلاف الأصوات وهي تزف إليها الأمل في نعيم الحياة، ورفاه العيش، ثم خرجت من كل هذا الضجيج المصم وهي اكثر هزالاً، وأشد جوعاً، وأعظم بؤساً.. فكفرت بكل الأصوات إلاّ صوتاً واحداً ما زالت تتوق

---

10 مسلم، كتاب الإيمان 208؛ الترمذي، كتاب الإيمان 2553.

إلى سماعه ألا وهو صوت الله تعالى.. فكونوا جديرين بحمله إليها وتبليغه إياها..!

(5)

نعلم أنكِ بكيتِ فُقْدانِ الهوية.. ونعلم أنهم سلبوكِ إياها.. ونعلم أيَّ عذاب مخيف تَحَمَّلْتِ حين لم تعودي تعرفين من أنتِ ومَن تكونين..؟! ونعلم ما قاسيتِ من الآم الانقسام بين أن تكوني "داغستان" الإيمان والإسلام وبين ألاَّ تكوني.. ونعلم غزارة الدموع التي سفحتها فوق ليالي الحيرة الطوال.. ونعلم ما اجْتَرَحَتْ أحزانُكِ في صحراء روحِكِ من حرقةٍ وعذابٍ وجَوَى..!

نعلم كل هذا.. ونأسى لكل هذا.. ومن أجله أتينا.. من أجل الهوية السليبة قَدِمْنا.. من أجل أن تكوني "داغستان" الإسلام والإيمان نحن هنا.. ومن أجل أن تلتقي هويتَكِ السليبة وتتوحدي مع شَطْرِكِ المَقْصِيّ جئنا إليكِ وحططنا رحالنا على بابكِ، وأقمنا خيام أشواقنا في رحابكِ.. فأومئ إلينا.. أشيرى نحونا.. تجديننا بين يديكِ.. فلذاتِ مضيئاتٍ من كبد الإسلام، وجذواتٍ متوهجاتٍ من أقباس الإيمان والقرآن..

يا أمنا الحبيبة التي عشقتها أرواحنا لا تبعدينا عنكِ.. خذينا إليك وامنحينا حبَّكِ.. وضُمّي يَدَكِ لنجدد معاً ما اندرس من معالم الإيمان.. ونعيد ما غاب من آيات الهدى والفرقان، في رحابكِ وفوق أرْضكِ..!

(6)

أينما مضيتُ ـ في شعاب هذه المدينة ـ أسمع وقع خطاهم، كيفما أصغيت اسمع نبضات قلوبهم.. وإذا ما تنفست أتنفّس عطر أرواحهم.. وإذا ما هبّت الريح حملتْ إلى أصداء أصواتهم، وصليل سيوفهم، وصهيل خيولهم..!

أولئك الحفاة العراة الجائعون الظامئون الذين اتعبوا التاريخ، فظلّ يركض وراءهم فلا هم يتوقفون ولا هو يلحق بهم.. إنهم هنا فوق روابي هذه المدينة يرقدون..جائعون حقاً ولكنهم كانوا للحق أشدَّ جوعاً وأعظم ظمأً.. حفاة عراة صدقاً ولكنهم أبداً لم ينتعلوا أبشار الشعوب [11]ولم يتسربلوا دماء البشر.. أرضيون طينيون ولكن صحبتهم لنبيهم ρ جعلت أرضيتهم سماءً.. وطينيتهم عنصراً نورانياً مشعاً وحولت تمراتٍ في كفٍّ واحد منهم إلى جمرات محرقات فيقذف بها ويقذف بنفسه إلى رحى الحرب لينال الجنة التي اشتاق إليها واشتاقت إليه..!

أتدرون ماذا كانت تمثل هذه التّمرات في كف ذلك الصحابي الجليل..؟ هي دنياه.. هي ماله.. هي شهوته ولذته.. هي درهمه وديناره.. فلما ألقاها من يده ألقى بكل ذلك وراء ظهره فصار أهلاً للشهادة والجنة..!

أيها الراقدون فوق روابي هذه المدينة.. يا صحابة رسول الله ρ.. أعيرونا قوة أرواحكم.. امنحونا صلابة سواعدكم..

---

11 البشر: جلد الإنسان ومنها قوله تعالى في النار: (لوّاحة للبشر) والعبارة كناية عن عدم استعباد الناس وامتهان كرامتهم.

ابتعثوا فينا هممكم.. اقدحوا أزندة إراداتنا.. علّمونا كيف نقتحم الأهوال ونصارع الخطوب ونهزم المستحيل.. أمدّونا بحكمتكم.. أرشدونا.. زهّدونا.. لكي نلقي ما بأكفّنا من رموز الدنيا إلى هاوية الفناء.. خذوا بأيدينا.. امنحونا بركاتكم لكي نؤدي رسالة الإيمان ونفوز برضى الرحمن..!

داغستان / دربند / في شباط 1999

النُّورسي .. أديباً

بسم الله الرحمن الرحيم
(الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ القُرْآنَ. خَلَقَ الإنسَانَ. عَلَّمَهُ البَيَانَ.)
(الرحمن:1-4)

1-الرحلة إلى منابع الجمال

جئت – أيها الصديق العزيز – تطلب قلب "النورسي" بين قلوب الأدباء .. ؟ حسناً .. أنا أدلك عليه، وآخذ بيدك إليه .. أنظر. . . إنه هناك .. بعيداً .. بعيداً .. وراء تخوم العالم .. وفوق حدود الأكوان. . . سابحا بين عوالم المعاني الفائضة من أسماء الله الحسنى. . . يروح ويغدو متلمسا جمال الوجود، وملتقطا لآلئ الحسن من فوق جيد الأكوان .. هذا العَطِشُ المحترق بعطشه، المتسعر بوجده .. ما ناغى الجمال أحد مثله .. ولا ذاق من رحيقه أحد كما ذاق، ولا شرب كؤوسا مترعة من كوثره كما شرب .. حتى إذا ثمل، وانتشى هوى ساجدا بين يدي الله تعالى سجودا أبديا لم يَقُمْ منه حتى توقف نبضه، وأغمضت أصابع الموت أجفان بصره وبصيرته.

و "النورسي" عقل يفكر، وروح يستعر، وشوق يلتهب، ورغبة تتوجع، وحزن يتفجع .. فإن لم يخلق هذا أدبا فما الذي يخلقه إذن...؟! وإن لم يصنع هذا أديباً فما الذي يصنعه إذن .. ؟!

ومنذ نعومة أظفاره وهو فتى يدرج في شعاب قريته، شعر بأنامل الجمال وهي تتحسس مساقط الحياة من سويداء الروح، فإذاً قلبه بلبل غريد يغرد بألف لسان ولسان، وإذا روحه نشيد تتردد أصداؤه بين قمم الكلام من جميع اللغات.

2- (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ) (سبأ:15)

ومراتع الجمال الأولى لقلبه الفتي كانت قريته "نورس" .. إنها بين قرى الأناضول كشعاع الروح في ظلمة النفس .. في الإصباح تتلفع بأوشحة شفافة من ضباب لؤلؤيّ فاغم العطر .. بينما فؤاد الأرض العطش يستقبل زخات مطر بين آونة وأخرى .. وسنابل القمح الذهبية في باكورة الصيف تظل تستقبل بلهفة دفقات حنان من نور الصباح (بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ).

و "النورسي" في هذا المهرجان الجمالي الذي تتناغم فيه الألوان والصور الأصوات يغدو عينا لماحة تَلُمُّ لآلئ الحسن المنتثرة في الحقل والوادي والجبل، وعلى الشجر وفوق الزهر، وروحا شدها بكل شيء فيغدو وترا مشدودا مستوفزا يتحرك للهمسة، ويرن للمحة والخطفة .. لا شيء عتيق في رأي "النورسي" ولو رآه كل يوم، ولو ألفه وسكن معه

وساكنه السنين الطوال، لأنه يرى في "المألوفات خوارق العادات، وفي المكرورات لمسات الخلق الدائرات المتجددات مع اللمحات واللحظات".

3- **الوجود والعدم**

وتصرخ روحه في ظلمة الليل وقد انتابه قلق مريع وأرق وجيع:

يا للهول ..هذا الموت الذي يطال كل شيء حي هل من منقذ منه ؟ وهذا العدم الذي يطوى كل موجود أما من فكاك عنه ؟

إن قضية جديدة بدأت تتشكل ملامحها في ذهنه الفتي، وتستأثر بجل اهتمامه، وهي قضية الصراع الرهيب بين البقاء المتشبث العنيد، والفناء المتشبث العنيد، منذ أن سمع والده وبعض ضيوفه يديرون حوارا بينهم حول الموت والحياة، والوجود والعدم. وفي إحدى الليالي وهو في الفراش حيث يتقلب على إبرٍ محماة من القلق والأرق، يسأل نفسه:

لو خيرت -يا سعيد- بين العدم والوجود حتى في جهنم الحمراء فماذا كنت تختار؟ ويجيب: إني وبلا تردد أختار الوجود حتى في جهنم الحمراء على العدم، ولئن أكون شيئا ما يحترق خير من أن لا أكون على الإطلاق.

وبعد سنين من تلكم الليلة المريعة، وبعد تفكير عميق في ظاهرتي الموت والحياة، والوجود والعدم يخلص إلى أنه لا فناء ما دام خالق الوجود موجودا، ولا موتا ما دام واهب

الحياة حيا، فالفناء في الحقيقة هو عين البقاء، والموت هو عين الحياة.

ويضرب لذلك مثلا فيقول: "إن هذه الزهرة الجميلة التي تنظر إليك مبتسمة، لا تلبث إلا قليلا حتى تذبل وتموت، إلا أنها تظل حية في بذرتها التي فيها خارطة حياتها، وفهرس وجودها، وهي حية كذلك في ذاكرة المشاهدين. وفي مخلية الكون، وفي علم الله، وكذلك الإنسان فإنه يموت من جهة إلا أنه إذا مات يرجع حيا في علم الله، ثم يعود الى عالم الخلق والتكوين مرة أخرى للحساب والثواب والعقاب" ولعل إلى هذا يشير القرآن الكريم حيث يقول على لسان الكافرين: (رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ) (غافر:11).

4- **المواجيد والأشواق**

يا وجد القلوب .. يا شوق الأرواح .. يا لهيب الفكر .. تأجّج وتوهج .. وازدَدْ تأجِّجا وتوهجا فقلب بلا وجد .. وروح بلا شوق .. وفكر بلا لهب .. أشلاء نفس ميتة ومساكن ظلام، وأعشاش عفونات، فالإيمان ينأى عن مساكنة الظلام، أو العيش بين الأموات.

ولكي يدخل النفس بدون استئذان، يصوغ "النورسي" المقاصد الإيمانية صياغة فنية وأدبية، حتى إذا ما زجت النفس، وخالطت القلب، أضاء الروح، وتوهج الوجدان،

وتألق العقل، واستضاء الفكر، وسمت الحياة وطهرت وعادت كما بدأ الله أول خلقها.

فكل شيء -عند النورسي- من ينبوع الجمال والجلال الإلهيين يأتي واليهما يعود، وإن المحبة أصل الوجود، والجمال جوهر الكون، ومن دونهما فلا كون ولا وجود ولا خلق.

5- الخَلْق والفرح الإلهي

ولأن من صفاته تعالى "الخالق" فهو لا بد أن يخلق فهو "خلاق" إلا أنه يحب ثم يخلق، فهو يحب خلقه قبل أن يخلقهم، ويحبهم بعد أن يخلقهم، فكما أن كل صانع يحب صنعته ويفخر بها، ويباهي بها، ويشعر بالزهو بسببها، فكذلك الخالق -ولا مناقشة في المثال- فأنه يحب خلقه، ويفرح بهم، ويباهي بهم، ويسبغ عليهم وده ولطفه ورحمته.

ويعبر "النورسي" عن قدسية هذه المعاني قائلا:

"وله –جل وعلا- ما يشبه المحبة - تليق بذاته سبحانه- بمقدار سعادة مخلوقاته، وبمدى تنعمهم وفرحهم، وله شؤون ربانية مع خلقه يتعذر التعبير عنها، وقصارانا أن نقول: إنها لذة ربانية لائقة بذاته، وعشق رباني غاية في القداسة، وفرح رباني عالي القدسية وسرور للذات الرباني ينذ عن الفهم والوصف، بحيث إن كلاً منها هي أسمى وأرفع وأنـزه بما لا يتناهى من درجات العلو والسمو والقداسة مما يظهر في

الكائنات، وما نشعر به من العشق والسرور بيننا وبين الموجودات بعضها مع البعض الآخر"[12]

ثم يزيد في التوضيح فيقول:

"وهكذا فإنْ كان إنسانٌ صغيرٌ عاجزٌ عن الإيجاد والخلق يغمره السرور إلى حد الاختيال بمجرد صنعه صنعة صغيرة، فكيف بالصانع الجليل خالق هذا الكون الموزون المموسق والذي جعل منه حاكيا عظيما يحكي قصة الخلق والخليقة، ويبث أصداء تسبيحات أهل الأرض السماء، والذي خلق رأس الإنسان بعقله وحواسه حاكيا ربانيا آخر يَبُثُّ موسيقى المشاعر والأحاسيس، في الليل والنهار، وفي اليقظة والمنام، وفي جميع الأوقات، ولا تسكن هذه الموسيقى حتى تسكن فيه الحياة"[13]

6- مرآة التجليات الإلهية

هاأنذا أسمع صوت الوجد الشجي يملا قلب "النورسي" وأكاد أبصر مرايا فؤاده وهي تتكسر وتتطاير شظايا في الفضاء شوقا الى جمال المعاني، إنه يستقطر دموع الجمال وهو يخب صعدا نحو رؤى جمالية بعيدة المزار، كلما اقترب منها ازدادت بعدا، واشتطت نأياً، إنه ذلك الجمال الخلاق الساري بين الرؤية والرؤى، بين عين الرأس وعين القلب، بين جمال المحسوسات والمبصرات والمسموعات وجمال

---

(12) ص 744 من الكلمات، مع تصرف بسيط جدا.

(13) ص 745 من الكلمات، مع تصرف بسيط جدا.

المجردات من المعاني المتجليات على الأرواح الطاهرات، إنه جمال مَصُونٌ محاط بسور من نار ونور، لا يَطَالُه إلاّ المنوَّرون الذين يطفئ نورهم النار، ويرقى وجدهم فوق الجدر والأسوار.

هذا الجمال الذي هام به "النورسي" والذي يشكل جوهر دعوته، وجده معنى عظيما متجسدا وقائما في الذات المحمدي عليه السلام، في جسمانيته وروحانيته، في خَلقه وخُلقه، إنه كما يصفه **"النورسي":** **"**مرآة الجمال الإلهي الأقدس، ومجسم أنوار أسمائه الحسنى، وموضع تجلياته، ومصبٌّ محبته وعنوانُ رحمته على الأرض**"**

ثم يمضي فيقول: "فالله تعالى يحب كماله الذاتي. ويحب جمال صفاته، وجمال أسمائه الحسنى محبة لائقة به جل وعلا، ويحب أيضا محاسن مخلوقاته، وصنعته، ومصنوعاته، وسلطان الأولياء حبيب رب العالمين، أي: لمحبته لجماله يحب أصفى المرايا وأشدها نقاء العاكسة لهذا الجمال من الموجودات ومن بني الإنسان"[(14)]

7- **محمد** ρ **أديب الإنسانية**

فأي أديب عظيم كوني الآفاق، إنساني النـزعة، أممي النظرة، يمكن أن يكون من كان قلبه الشريف مهابط أنوار القرآن على مدى ثلاث وعشرين سنة. ومن كان روحه

---

(14) انظر الكلمات ص 740-741 مع شيء بسيط من التصرف الذي لا يخل بالمضمون.

السامي مُضَمَّخَ أندائه، وذاتُهُ الشريفة صنيع جماله وجلاله، فأصبح بذلك كوناً إنسانياً شاسع الأرجاء يقطر من جميع أنحائه ماء الجمال والجلال، وتتساكب من سحائب أنواره بارقات العقل، والتماعات الفهم والحكمة والإدراك الأشمل والمعرفة الأعمق لآلام البشرية ولأوجاع قلب الإنسان، وصدق عليه السلام حين قال: (أدبني ربي فأحسن تأديبي)[15] الأمر الذي حمل "برنارد شو" فيلسوف الإنجليز وأديبهم الكبير على الإعجاب به حيث يقول عنه: "أعطِهِ أية معضلة من معضلات بني الإنسان يجد لها حلاً قبل أن ينتهي من آخر رشفة من فنجان قهوته".

و "النورسي" تلميذ القرآن، وتلميذ رسول القرآن، يرى كتاب الله تعالى، وإن كان هو في الأساس كتاب إيمان وتوحيد وتشريع، إلا أنه كذلك كتاب أدب حي لا يموت، لأن منـزل القرآن حي لا يموت، فالذي يأخذ عن القرآن يأخذ من حي عن حي، أما من يأخذ عن كتاب غيره فهو يأخذ من ميت عن ميت، "فمن أين تأتي الحياة من فاقد الحياة" كما يقول.

وما من أديب من أدباء العربية المرموقين في الماضي والحاضر إلا وهو متأثر بالقرآن بقدر أو بآخر، فهو خزين علوم العربية وكنـزها الذي لا ينضب، منه تأخذ وإليه تعود فيما يَعُنُّ لها من إشكالات لغوية أو بيانية أو أدائية.

8- أدب الإيمان

---

(15) المناوي، فيض القدير 1/ 224..

والحس الشاعري والأدبي المرهف يطفر عفويا من قلم **"النورسي"** وهو يعالج قضايا إيمانية غاية في الأهمية، فعقله المجنّحُ يسابق روحه في استشرافاته على الأعالي من شؤون الإيمان، فعقله وقلبه عملا معا على إرساء قواعد معرفة إيمانية أراد "النورسي" أن تكون لها الصدارة بين معارف الإيمان.

وأكثر رسائله التي يبدو فيها حسه الأدبي والشاعريٌّ واضحاً، ويفصح عن تلازم أبديٍّ بين عقله وقلبه كتابه الموسوم: "المثنوي العربي النوري" الذي استأنس في تأليفه بـ"المثنوي" لمولانا جلال الدين الرومي، إلا أن الفرق بينهما أن مثنوي الرومي كان بالفارسية، أما مثنوي **"النورسي"** فهو بالعربية، وهو وإن لم يكن شعرا كمثنوي الرومي إلا أن أنفاسه شاعرية أدبية بإجماع "النقاد".

وفي منهجه في تأليفه للمثنوي يقول "النورسي"**:**

إنه سلك سبيلا قلَّ سالكوه في تأليفه، إذ حاول السير مع العقل ولكن تحت نظر القلب، ومع القلب ولكن تحت نظر العقل.

ويقول: لو عشت زمن "الرومي" لكتبت "المثنوي" الذي كتبه، ولو عاش هو زماني لاضطر إلى كتابة "رسائل النور" التي كتبتها. وكلامه هذا ينمُّ عن خزين أدبي عظيم لم يستخدم منه إلا القليل الذي يخدم رسالته الإيمانية التي كرس لها حياته.

وإن كانت "دولة الأدب" ترحب بقلم "النورسي" كواحد من أبرز أقلامها إلا أن قلمه الأكبر والأعظم كان اكثر انتماء، واشد تعلقا بدولة الإيمان رسالته الأخطر في عصره، فاختلاف العصور يوجب كذلك اختلافات في أنماط التفكير، واختلافات في أساليب تناول الإشكالات الفكرية والإيمانية التي يطرحها عصر دون عصر، فعصر "النورسي" هذا العصر الاكتساحي لكل ما توارثته البشرية من قيم دينية ومثل أخلاقية وفكرية عصر الشك حتى في بديهيات العقل، استدعى أنماطا من التفكير وأساليب من المعالجة لم يكن "الرومي" مُضْطَراً إليها.

والامتزاج والتنافذ بين عقله المجنح وروحه المحلق، هو ميزة "أدب الإيمان" الذي كان "النورسي" واحدا من رواده الكبار في هذا العصر.

9- "النورسي" والفكر الأوروبي

وليس صعبا على "النورسي" ذي الذكاء الخارق والعقل الاستيعابي الشمولي أن يحيط بكليات الفكر الأوروبي الحديث، وَيَلُمَّ بفلسفاته وعلومه، ويطلع على إيجابياته وسلبياته، ويقف على تأثيراته في "الإنسان المعاصر" وفي تكوين أفكاره الجديدة، وتغيير نظرته إلى الوجود و الحياة، وأخيرا كيف دفع هذا الفكر بمعطياته المادية بشرية القرن العشرين، إلى هذا الموقف البارد واللامبالي من الدين

والإيمان عند البعض، وإلى العداء الصريح عند البعض الآخر .

و " النورسي " بنـزعته الموسوعية، ونظرته الشمولية التي كانت طابع حياته الفكرية والروحية منذ تَفَتُّح وعيه على الحياة، شغوف بالقراءة والدرس والتفحص والتأمل، يقرأ في علم النفس، ويدرس الفلسفة، ويهتم بفسلجة الإنسان التشريحية، ويلم إلمام المتخصصين بالرياضيات والفيزياء والكيمياء، وبعلمي الحيوان والنبات، ويتأمل في العلوم الفلكية، ويرصد ويطّلعُ على أحدث نتاجات الفكر الأوربي المترجمة إلى التركية من قبل بعض المرموقين من المثقفين الأتراك ويرصد النجوم من مرصد فلكي في مدينة " وان " كان قد استقدمه من " أوربا" أحد ولاة المدينة .

وبعد ذلك كله يستخدم ما أفاده من هذه العلوم والمعارف في خدمة (الإيمان) القضية الكبرى التي كرس لها حياته، وأوقف عليها وجوده .

ولما كانت الموجودات في هذه الدنيا- كما ينظر إليها **النورسي**- "هي أمثلة مصغرة لوجود أخروي كبير . وأطياف خيال لحقيقة أخروية أعظم وأشباحا باهتة لرؤى فكرٍ أخرويّ غاية في السَعَةِ والشمول والدقة والعظمة . . لذا فإن كل موجود " هنا في عالمنا الصغير هذا موصول بما يناظره هناك، وكل معنىً هنا مرتبط بمعنى أسمى وأعظم هناك، فالدنيا مرتبطة بالآخرة، وحبُّ البقاء والكمال عند الإنسان هنا

يؤكد معنى الخلود والبقاء والكمال هناك، و " الصُّورُ " الذي ينفخ فيه الربيع ليبعث من الأجداث مئات الألوف من أنواع النبات والحيوان والحشرات كلَّ سنة، إيماءة واضحة لصورٍ أكبر، وحشر أعظم يوم القيامة . والحافظة في مخّ الإنسان وهي بحجم حبَّةِ خردل، والتي تحتفظ بشريطٍ مسجلٍ لماضي الإنسان وما وقع له من أحداث، هي مثال مصغر لحافظة أخروية أوسع وأكبر تحفظ سجلاً كاملاً لتاريخ حياة الإنسان على هذه الأرض، ليعرض عليه في الآخرة عند مناقشته الحساب .

10- فكر " المعاناة "

وكلّ كلمة قالها أو خطّها أو أملاها على تلامذته إنما هي حقيقة بعيدة المنال، خاض إليها الأهوال، وقطع الفيافي والقفار، وعبر إليها بحوراً من حُجُبِ النفس والوجدان، وقاسى من أجل اقتناصها أشدَّ المقاساة، قبل أن تتجلى في سماء ذهنه مجلوة مشرقة مبرأة من ظلال الشكّ وسحائب الوهم كالشمس الطالعة في ضحى يومٍ صائفٍ .

وليس " النورسي " صاحب قلم باردٍ يغمسه في مداد فكر بارد، ليكتب ما يشاء وقتما يشاء، إنما هو المعاناة الجريحة المدّماة التي تنـزف فكراً فيه حرارة الروح، ودفء القلب، وإنما هو السحابة المثقلة بماء الحياة والتي لا يدري أحدٌ متى تبرق وترعد وتغيث، وإن شئت فاستمع إليه يقول في وصف حاله عندما كتب " مثنويه "!

(.. والكلمات إنما تولّدَت إثر جدال هائل، ونقاش عظيم مع الفكر، وسَطَ إعصار تتصارع فيه الأنوار مع النيران، فإحسٌّ برأسي يتدحرج في آن واحد من الأوج إلى الحضيض، ثم يرتفع من الحضيض إلى الأوج، ومن الثرى إلى الثريا ؛ إذ سلكت طريقاً غير مسلوك، في برزخ بين العقل والقلب، ودارَ عقلي من دهشة السقوط والصعود فكلما صادفتُ نوراً نصبتُ عليه علامة لأتذكره بها، وكثيراً ما أضع كلمةً على ما لا يمكن التعبير عنه للإخطار والتذكير، لا للدلالة، فكثيراً ما نصبت كلمةً واحدةً على نور عظيم)

و " النورسي " نفس شاعرة، وروح لهيف، وقلب مشتاق، ووجدان رقيق مرهف، وبصيرة نقّادةٌ مذواق، وبصر لمّاح رصّاد لا تفوته بارقة من بوارق الجمال الكوني، ولا تفلت منه سانحة من سوانحه، وطائر عجيب يلقط لآلئ الحسن من فوق جيْدِ الوجود، وظامئ عطش يرتشف زلال الجمال من رضاب ثغور الأكوان .. ومع كونه يملك كلَّ صفات " الشاعر العظيم " إلا أنه لم يقل شعراً، أعني أنه لم ينظم شعراً كما ينظم الشعراء، ولكن ما قاله في المثنوي رغم أنه يحمل ميزات " النثر " ومقوماته شكلاً وقالباً إلا أنّه شاعري الروح والنفس، وجداني الانسياب، رشيق في صوره وأخيلته مع عمق أفكاره ودقيق معانيه .

والشعر - بعد هذا أو ذاك - قد يضطر للمبالغة في كثير من الأحيان حتى يحفز ويثير ويحرك، وهو من أجل تصوير

معنىً من المعاني، وتجسيم قيمة من قيم الجمال والحق قد يجنح إلى ما وراء المعقول، ويهبط في خياله على " اللامعقول " من الأخيلة والصور .

وكلام " النورسي " في مثنويه - رغم روحه الشاعرية - منـزه عن هذا كله، فهو يتفاعل مع صور " الحقيقة " ويتحاور مع آثارها، ويناقش ظلالها على صفحة الوجود، وهو لا يفعل أكثر مما يفعله الرسّام البارع في الصور الباهتة وقد حَالّت خُطُوطها، وانطَمَسَت معالمها، واختلطت ألوانها، فيمرّ عليها بفرشاته المطواع ليبعث الدفء والحرارة فيما بَرُدَ من ألوانها، ويُجسِّم ما غام وشحب من معالمها، ويمنحها أبعادها التشكيلية، ويهب الرائي عمق الرؤية، ونفاذ النظر إلى دواخلها .

ولو أردنا أن نصف كتاب " المثنوي العربي النوري " لقلنا :

(إنه ليس سوى لوحة فنية رائعة الجمال، رسمها فكر ملتهب، وكوَّنها قلبٌ دامٍ، وسكب عليها الظلّ والضياء روحٌ حزينٌ مغترب، فلا عجب إنْ شَدَّت - هذه اللوحة - إليها الانتباه، وقيدت بها الأفكار، وحبست عليها الأرواح، وأوقفت لها القلوب .

وهي بموسيقية ألوانها، وتناغم ظلالها وأضوائها، وإشراق آفاقها، وامتداد أمدائها، وعمق أبعادها، وجمال تعبيرها، تأسر الألباب، وتَشْدَهُ النفوس، وتَهُزُّ رواكد الأشواق في

الإنسان إلى " ما وراء " هذا العالم الضيق المحدود، وإلى ما وراء هذه الحياة التي مهما طالت فهي دون ما يرجوه من خلود، ودون ما يراوده من آمالٍ في البقاء والأبد)[16] .

11 - البلبل

نعرض هنا إحدى روائع النورسي " الأدبية التي ترقى به إلى مصاف الأدباء الإسلاميين الكبار، فهو في هذه القطعة يرتفع إلى القمة التي ارتفع إليها شاعر الصوفية الأكبر " مولانا جلال الدين الرومي". أيها البلبل الغريد .. يا ملك اللحن والغناء .. يا صناجة الطير وقيثارة الغاب .. تغن يا عاشق الأزهار .. واسكب حنان قلبك وأشواق روحك في أذن الورود وأسماع الأزاهير .. ففي صوتك الشجي ظمأ الطير كلها إلى " الزهرة "، ملكة النبات، وأميرة الحقول والبساتين والغابات لتبثها - باسم كل ذي جناحين - رسائل الود والعشق والمحبة .. وتعلن لها - بلسان الطيور - الشكر والامتنان لمملكة النبات على ما تهديه من أرزاق وأقوات لضيوف الرحمن على هذه الأرض.

تنتقل من فنن إلى فنن، وتطير من زهرة إلى أخرى جذلان منتشيا، وتنظر بعين الشكر إلى هذه الأرزاق المسوقة إلى أبناء جنسك، وهذه الأقوات المهداة من خزائن الرحمة الإلهية

---

(16) انظر كتاب "مختارات من المثنوي العربي النوري " اختيار وتقديم كاتب هذا البحث في الصفحات 12 , 13 , 14 ، 15 ، 16 مطبعة الزهراء الحديثة / 1404 هـ – 1983 م / الموصل – العراق.

إلى الأفواه الجائعة، والمعدات الخاوية، فيستخفك الفرح، ويهزك الكرم الإلهي العميم، فتصفق بجناحيك الصغيرين، وتطلق باسم كل طير وحيوان أصوات الترحيب والتهليل، وترسل ألحان الحمد والشكر والثناء .. وتغمر زهرتك بفيض حبك، ومذاب عشقك، ويتساكب وجدك كأنداء السحر فوق وجه هو ألطف الوجوه وأرقها .. وتنساب قبلات فؤادك على ثغر هو أشهى الثغور وأعذبها .. وتدلف إلى محاريب الطهر والنقاء حيث العذارى من أزاهير الروض وقد غدون شفاها مسبحة، وقلوباً ولهى ذاكرة، فتلملم من فوق الشفاه تسابيحهنَّ وتجمع من بين الضلوع ذكرهُنَّ، ثم تمضي بصوتك العذبِ الحنون تسبّحُ عن كل زهرة، وتذكر بلسان كل وردة على عتبة مقسّمِ الأرزاق، ومالكِ الملكِ .. وعند باب الرحمن الرحيم ذي الجلال والإكرام .

هذا بعضُ ما نستشفهُ من ألحانك - أيها البلبل العزيز- وبعض ما نحدسه من تغاريدك .. وربّما أنت تقول أشياءَ أخرى لا نرقى إلى فهمها، وتودعُ أُذُن الكون رسائل لا ندرك كنْهَها . ولا نعلمُ سرَّها .. وربَّما أنت نفسك لا تفهمُ مقاصد ما تؤديه، ولا تدرك مغازي ما تفعله، ولكنك - على رغم ذلك - سعيد بعملك، مبتهج بواجبك .. أما الملائكة والروحانيون المبثوثون في أرجاء الكون، فأنهم أقدر منا ومنك على فهم ما تقول، وعلى إدراك ما تعني، وهم بدورهم يرفعون رسائلك وينقلون أحاديثك إلى أبواب الحضرة الإلهية .

فجهلك - يا بلبلي العزيز - إن كنت جاهلاً حقاً بهذه الغايات والمقاصد لا يعني عدم وجودها، فأنت كالساعة تشير إلى الزمن، وتعلمنا الوقت، ولكنها لا تعلم هي ما تفعل ..

فاعتصرْ لذا ذات عملك من جمال الأزاهير، وتناول أذواق قلبك وروحك من أحاديث الورود، وتمايلهن على الغصون، وابثث ما شئت من أحزان بين أيديهن، فنغماتك مهما بدت حزينةً شجيةً فهي ليست شكاوى وآلاماً بقدر ما هي شكر وثناء وحمد لعطايا الرحمن وآلائه .

* * *

ولا يذهبن بك الوهم أيها الإنسان - فتحسب أن " البلابل "، هي لعالم الطيور وحدها، وأن أنواعاً أخرى من مخلوقات الله لا تعرف من يسبح باسمها، ويرفع آيات شكرها وحمدها لبارئها، فلكلِّ صنف ونوع بلبله الخاص به، وحتى العناكب والنمل والنحل لها بلابلها التي تلحن تسبيحها، وتغرد أشواقها ومواجيدها، وهي بالوقت نفسه لها هداياها التي تحصل عليها من خلال عملها، من متع تغريها بالمزيد من الجد في أداء واجبها في خدمة الصنعة الربانية، مثلها في ذلك مثل القبطان الذي يقود سفينة سلطانية في عرض البحار، فأنه زيادة على المرتب الذي يتقاضاه من خزانة الدولة فهو يستمتع ويلتذ بما يشاهد من مناظر جمالية تعرض له أثناء إبحاره وتطوافه بين الضفاف والشطئان.

* * *

هكذا فلكل نوع من أنواع الكائنات بلبله الذي يلتقط من مجاميع النوع الذي يمثله ألطف حسياته، وأرق مشاعره، وأعذب مواجيده ثم يغرد بها ويشدو، ويسجع وينشد، فما من أذُن في هذا العالم، وما من سمع في هذا الكون إلا ويلتقط ما يناسبه ويلذه من هذه الألحان والتغاريد من أصغر المخلوقات إلى أكبرها، وقسم من هذه " البلابل " ليلية التغريد، فهي تنشد قصائدها في دواوين الليل الساجي، فتحرك بهذا النشيد في هدوات الليالي مكنونات القلوب، ومشاعر الأرواح، تماما كما يفعل الأقطاب والمرشدون في تحريك الذاكرين، وتنشيط المتكاسلين من الدراويش والمريدين في حلقات الذكر وعندئذ يبدأ الجميع- كُلٌّ بلغته الخاصة على قدر حاله - بذكر الله سبحانه وتعالى والتوجه إليه بالشكر والمحبة والتعظيم والخشوع .

* * *

إذن فكل نوع من أنواع الموجودات - وحتى الأفلاك والنجوم - لها رئيسها الذي يقود حلقة الذكر فيها، وبلبلها الذي يلحن في عتمة الفضاء الوسيع أنوارها، ويغرد أضواءها ..

ولكن، أ تدرون من هو بلبل البشرية وعندليبها، وصاحب مواجيدها و أشواقها، وحامل آلامها وآمالها، والهاتف بصوت عقلها وقلبها .. ؟ !

أنه أفضل بلابل الكون وأشرفها .. وأعذبها صوتا وأعلاها نداء وأرقها مشاعر وألطفها حسا .. وهو المع بلابل البشرية

من الأنبياء والمرسلين نورا، وأتمهم ذكرا، وأعظمهم شكرا، وأكملهم ماهية، وأجملهم وأبهاهم صورة .. ذلك الذي كل الكون بستانه .. وكل الوجود زهرته .. وكل الموجودات أغصانه، والأرض والسماوات روضه .. باعث الأشواق إلى الله .. وحادي القلوب والأرواح إلى بارئها وكل البشرية أوراده .. المغرد بالقرآن، والصَدّاح بآيات الله، محمد بن عبد الله ρ [17]

12- في مراعي " بارلا "

يقول " النورسي " :

بينما كنت على قمة جبل في "بارلا " أيام منفاي، أسرح النظر في أشجار الصنوبر والقطران والعرعر، التي تغطي الجهات، وأتأمل في هيبة أوضاعها وروعة أشكالها وصورها، إذ هب نسيم رقيق حول ذلك الوضع المهيب الرائع إلى أوضاع تسبيحات وذكر جذابة واهتزازات نشوة شوق وتهليل، وإذا بذلك المشهد البهيج السار يَتَفَطَّرُ عبراً أمام النظر، وينفث الحكمة في السمع، وفجأة خطرت ببالي الفقرة الآتية بالكردية لـ (أحمد الجزري) وهي :

(لقد أتى الجميع مسرعين من كل صوب لمشاهدة حسنك إنهم مبهورون بغنج جمالك ودل سلطانك)

ويمضي " النورسي " فيقول :

---

(17) : انظر الصفحات 133 ، 134 ، 135 ، 136 من كتابي (رجل الإيمان في محنة الكفر والطغيان، أنوار نشريات، إستانبول، تركيا.

وتعبيرا عن معاني العبرة بكى قلبي على هذه الصورة :

يارب .. إن كل حي يتطلع من كل مكان، فينظرون معاً إلى حسنك، ويتأملون في روائع الأرض التي هي معرض صنعك .

فهم كالدعاة الأدلاء، ينادون من كل مكان، من الأرض، ومن السماوات العلى إلى جمالك

فترقص تلك الأشجار، الأدلاء الدعاة جذلة من بهجة جمال نقوشك في الوجود . فتصدر أنغاما شدية وأصداء ندية من نشوة رؤيتهم لكمال صنعتك .

فكان حلاوة أصدائها، تزيد نشوتها، وتهزها طربا، فتزداد تغنجا ودلا ودلالا .

ولأجل هذا هبت هذه الأشجار للرقص الجميل منتشية منجذبة . يستلهم كل حي صلاته الخاصة، وتسبيحاته المخصوصة من آثار هذه الرحمة الألهية وبعد التزود بالدرس البليغ، تنتصب كل شجرة قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة أيديها متطلعة إلى العرش .

لقد تسربلت كل شجرة بسربال العبودية ، ومدت مئات من الأيدي ضارعة أمام عتبة الحضرة الألهية كأنها (شهباز قلندر) [18] .

---

(18) كان خادما لدى الشيخ الكيلاني ، وتربى على يديه ، حتى ترقى في مراتب الولاية – المؤلف .

وتهز أغصانها الرقيقة كانها الظفائر الفاتنة لـ (شهناز الجميلة) [19] مثيرة في المشاهد أشواقا لطيفة وأذواقا سامية.

لكأن هذا الجمال يهز طبقات العشق، بل يمس أعمق الأوتار و أشدها حساسية أمام هذا المنظر المعبر يرد على الفكر ما يذكره بأنين حزين، وبكاء مرير، ينبعثان من أعمق الأعماق، المكلوم بألم الزوال الذي يصيب الأحبة المجازية . إنه يسمع أنغام الفراق والألم الشجية على رؤوس أشهاد العاشقين المفارقين أحبتهم، كما فارق (السلطان محمود) محبوبه.

وكأنَّ هذه الأشجار بنغماتها الرقيقة الحزينة تؤدي مهمة إسماع أصداء الخلود لأولئك الأموات الذين انقطعوا عن محاورات الدنيا وأصدائها .

أما الروح فقد تعلمت من هذه المشاهد :

إن الأشياء تتوجه إلى تجليات أسماء الصانع الجليل بالتسبيح والتهليل، فهي أصوات وأصداء تضرعاتها وتوسلاتها .

أما القلب فأنه يقرأ من النظم الرفيع لهذا الإعجاز، سر التوحيد في هذه الأشجار كأنها آيات مجسمات.

أي : إن في خلق كل منها من خوارق النظام وإبداع الصنعة، وإعجاز الحكمة، ما لو إتحدت أسباب الكون كلها وأصبحت فاعلة مختارة لعجزت عن تقليدها .

---

(19) حسناء شهيرة بجمالها وجمال شعرها وظفائرها – المؤلف .

أما النفس، فكلما شاهدت هذا الوضع للأشجار، رأت كأن الوجود يتدحرج في دوامات الزوال والفراق، فتحرت عن ذوق باق، فتلقت هذا المعنى : (إنكِ ستجدين البقاء بترك عبادة الدنيا) .

أما العقل فقد وجد انتظام الخلقة، ونقش الحكمة، وخزائن أسرار عظيمة في هذه الأصوات اللطيفة المنبعثة من الأشجار والحيوانات معا، ومن أنداء الشجيرات والنسائم، وسيفهم أن كل شئ يسبح للصانع الجليل بجهات شتى .

أما هوى النفس فأنه يلتذ ويستمتع بحفيف الأشجار، وهبوب النسائم، وينال ذوقا رفيعا بنسيمها (أي النفس) الأذواق المجازية كلها، حتى إنها تريد أن تموت و تفنى في ذلك الذوق الحقيقي، واللذة الحقيقية بتركها الأذواق المجازية التي هي جوهر حياتها .

أما الخيال فأنه يرى كأن الملائكة الموكلين بهذه الأشجار قد اختاروا جذوعها سكنا لهم وأغصانها أردية لهم . وقصباتها هواتف إشراق ترسلها أجوافها أنين نايات شجية، وكأن السلطان السرمدي قد ألبسهم هذه الأجساد في استعراض مهيب على إيقاع حزين من حفيف الشجر ومما ترسله النايات من شجي الألحان، فتظهر تلك الأشجار أوضاع الشكر والامتنان له بشعور تامّ، لا أجساداً ميتة فاقدة للشعور فتلك النايات الساحرة الأنغام الصافية الصوت، اللطيفة الأصداء، كأنها منبعثة من موسيقى سماوية علوية،

فلا يسمع الفكر منها شكاوى آلام الفراق والزوال، كما يسمعها كل العشاق، وفي مقدمتهم (مولانا جلال الدين الرومي) بل يسمع أنواع الشكر للمنعم الرحمن، وأنواع الحمد تقدم للحي القيوم ..)[20]

13- الهاوية والسقوط

الانحلال الذي دب في روح الأمة العثمانية، و عاث فسادا في عقلها آخر أيام حياتها قد وأد ذاكرتها الإيمانية، ومسح مرآة وجدانها من كثير من صور الأمجاد التي حفل بها تاريخها الإيماني، بينما توقف زمنها العتيد صامتا حزينا في انتظار عودة الذاكرة الموؤدة إلى سابق عهدها، غير أن معاول الهدم التي كانت تهدم في كيانها منذ أجيال بصمت كتوم كادت تجهز على البقية الباقية من هذه الذاكرة، وأدى ذلك إلى زوال التأثير الإيماني على مجمل حياة الأمة الأدبية و الفكرية مما دفع بحياتها الثقافية إلى تيه من اليباب والخواء، والرأس الذي كان يوما ما يناطح سماء العظمة الإنسانية بدأ يتطامن ويطاطئ حتى لامس غبار الأقدام، وشحنة العظمة التي كان توهجها يضئ الخافقين عادت رمادا، ومن ماضيها السحيق ما قبل الإيمان إنبثقت أفكار تريد إعادة عقارب الساعة إلى الوراء والعودة بها إلى وثنيات ما قبل إسلامها .

14- النجم الهادي

---

(20) : الكلمات ، الصفحات 242 ، 243 ، 244 ، 245.

وعند ما أقفرت سماء تركيا من أي نجم أدبي هاد، يذكرها بإيمانها، ويعيد إلى قلبها ما سلب من نوره، وإلى عقلها ما سلب من رصانته، سطع نجم " النورسي " فجأة، وأضاء الآفاق، وأشعل قناديل الآمال، وأنار طريق الخلاص، فحمل روحه العظيم الآم عصر كامل من الانكسارات، ناذرا قلمه من أجل الخلاص الروحي الذي لا خلاص للأمة مما تردت فيه من خذلان سواه، فبدأ ذهنه الحر الأصيل يتصاعد كاللهب بروعة إلى آفاق عالية من أدب الكلمة المُذَكّرَةِ بجذور الأمة الإيمانية، والساعية لانتشالها من هاوية الانسحاق الشائن الذي دفع بها خارج تاريخها المؤثل .

وكان لابد لهذا التوجه الأدبي **النورسي** الجديد أن يجافي التوجه الأدبي الغربي الذي صار له مكان الصدارة في أقلام الأدباء والمفكرين الأتراك الجدد، والذي يعود بجذوره الأولى الموغلة في القدم إلى كل من (أثينا) و (روما) الوثنيتين، وهو أدب - كما يقول **النورسي** أسطوري ملحمي روائي تمردي استعلائي إغتصابي، له رأي في الكون والإنسان والحياة على طرفي نقيض مع أدب الإيمان .

وعلى الرغم من أن الإنسان اليوم يكاد ينسى أنه كان في يوم من الأيام - وعبر التطور التاريخي من مرحلة إلى أخرى - يخرج إلى البراري ليصطاد فرائسه، ويغتصبها اغتصابا من يد الطبيعة ليأكل ويحفظ حياته من الهلاك، ألا أن " الغرب " لا ينفك يذكر اليوم بتلك الحقبة المتوحشة من

تاريخ الإنسان ويعود ليربي في الإنسان ذلك الشعور الحيواني المتوحش، ويغريه باغتصاب اللقمة من أفواه الجائعين وسرقة ما تحتويه أرضهم من كنوز كما يقول " النورسي ".

ثم يقول : ومع ذلك (لا ينبغي أن ننكر أن في المدينة محاسن كثيرة إلا أنها ليست من صنع هذا العصر، بل هي نتاج العالم وملك الجميع، إذ نشأت بتلاحق الأفكار وتلاقحها). [21]

15- الأساليب البيانية عند " النورسي "

والنورسي يمتلك قدرة فذة على استحداث أساليب متنوعة في الكتابة بتنوع الموضوعات التي يتناولها من حيث الأهمية والعمق، فهو ذو قلم مطواع يمتاح من خصوبة بيانية متعددة الجوانب والصور والأشكال، فأسلوبه بشكل عام يتراوح بين (السهل الممتنع) والقوي الصعب .

والغامض بعض الغموض، والغامض شديد الغموض، وأساليبه جميعها أساليب تحفيزية تحريكية تنشيطية للأذهان والأرواح، وذلك لأن أفكاره بالأساس ليست تقليدية تلقينية نمطية، بل هي استكشافية اختراعية تحتاج من القارئ إلى نوع من أنواع السياحات الفكرية، والكدود الذهنية شأن المستكشفين والمخترعين الرواد .

---

(21) الكلمات ص858.

وبهذا الخصوص يقول الأستاذ محمد عبد الله الحسو في مخطوطه عن الأسلوب الأدبي في رسائل النور الكلام الأدبي:

" الأستاذ سعيد النورسي شخصية عظيمة ذات جوانب متعددة، وآفاق واسعة، وأبعاد مختلفة، وأساليب البيان عنده متعددة، فقد تجد الأسلوب العلمي الدقيق بجانب الأسلوب الأدبي الرقيق الرشيق، وتجد في مؤلفاته القيمة الأسلوب الواضح البسيط السهل الجميل، كما تجد في موضوعات أخرى الأسلوب الغامض الذي يحتاج إلى تفكير وتأمل وكد الذهن لمعرفة ما يقصده الكاتب .

والغموض عند الأستاذ النورسي يتفاوت بين الغموض البسيط والغموض الشديد، وفي جميع أنماط أساليبه يحس القارئ بجذب واشتداد إلى ما يقوله المؤلف، ويحس بجمال وجلال وصدقٍ وإخلاصٍ وحماسةٍ وإيمانٍ عميقٍ من المؤلف بما يقوله ويقدمه من أفكار حول قضية " الحقائق الإيمانية " التي تدور " رسائل النور " العظيمة عليها، وحول الموضوعات الأخرى المختلفة".

جاء في " المثنوي العربي النوري[22] :

(اعلم) أيها الناظر! إني اسمع من الناس شكاية عن الغموض في آثاري فاستمع مني ولا تعجل لعتابي لأجل

---

22 ص312

الإشكالات، إذ مخاطبي نفسي الدساسة، وهي تفهم بسرعة أجوبة أسئلتها المخطئة ولو بالرمز. [23]

لا تطلب في آثاري انتظاماً وانسجاماً ووضوحاً لأنها (أي تلك الآثار) تقيد وتلخص مشاهداتي في تحولات غريبة ومجريات نفسية مختلفة مع أمور أخرى...".

ثم قال رحمه الله:

"لا تحسبن أن ما أكتبه شيء مضغته الأفكار والعقول، كلا! بل فيض أفيض على روح مجروح وقلب مقروح، بالاستمداد من القرآن الحكيم، ولا تظنه أيضاً سيالاً تذوقه القلوب وهو يزول...كلا بل أنوار عن حقائق ثابتة انعكست على عقل عليل وقلب مريض...إن ما يصادفك في المسائل من صورة البرهان والاستدلال ليس برهاناً حتى يقال فيه نظر! بل مبادئ حدسية قيدت وعقدت واستحفظت بأنوار اليقين المفاضة من القرآن الكريم ".

فهذا الرجل الملهم له أحواله وتجاربه الروحية وأحاسيسه، وله أيضا صراعاته النفسية، فهو في بحر مواج هدار وقد يأتي بآيات ساطعة كالشمس وقد يغطي الغموض-أحيانا-

---

(23) لعله يقصد انه يوجه كلامه إلى نفسه وهي تفهم مثل هذا الأسلوب ولو بالرمز، فكأنه حديث مع النفس، أو ربما يقصد أن الغموض ناشئ من أنه يتحدث عن تجارب روحية وأحوال نفسية غاية في العمق، فالكلام ليس كلاما اعتياديا بل كلام قلب يحيا في أمواج من الأحاسيس والإشعاعات، وبحر من الأفكار والتصورات والمعاني المختلفة القوية...!

بعض جوانب الشمس - شمس الإيحاءات والأحاسيس الباطنية العقلية والروحية والوجدانية

"إن قمة الروعة في الأسلوب الأدبي تتمثل في أخصب وأعمق كتب النورسي، وهو "المثنوي العربي النوري" وحقا إن هذا الكتاب تحفة أدبية ودينية رائعة من روائع عبقرية "النورسي" وإن فيه من الصور البيانية والإبداعات الفنية، والذوق الأدبي، وروائع التشبيه والتمثيل والخيال والشاعرية وفنون الاستعارة والكناية والرموز والتلويحات ومشارق نور البلاغة والبيان وجزالة الألفاظ وعمق الفكر وشموخ المقاصد والأهداف...أقول: إن في هذا الكتاب من هذه الأشياء ما يجعله من القمم الأدبية وعلى مستوى واحد من كتاب "المثنوي" لجلال الدين الرومي رحمه الله، وربما رجح عليه من بعض الجوانب". اهـ

* * *

ويمضي الأستاذ الحسو في كلامه مستشهداً بالدكتور "محسن عبد الحميد" حيث يقول في مقدمة كتاب "الآية الكبرى":

"إن الأستاذ "النورسي" وضح مذهبية الإسلام الشاملة في الكون والحياة والإنسان بمنطق صارم وشاعرية فذة وقلم سيال"[24]

---

(24) الآية الكبرى من ص 4-6.

ثم قال: "ويتقدم "النورسي" في هدوء ذكي ليأخذ بيد طالب الحقيقة في جولة رائعة...كل ذلك بأسلوب شاعري خصب، ومعرفة تامة بما كان يجري في عصره من تطور في العلوم...ومن خيال خصب ولفتات منطقية بارعة، وألق قلبي يقظ وسريان عجيب في باطن الوجود بل نفوذ إلى أعماق ذلك الباطن"[(25)]

ونستطيع أن نستنتج من أقوال الدكتور محسن عبد الحميد أنه يعتبره كتابا أدبيا، أو كتابا دينيا بأسلوب أدبي، وشاعرية فذة وقلم سيال، وخيال خصب.

ويمضي الحسو فيقول: "ومن خصائص الأسلوب الأدبي عند "النورسي" أنه اعتمد كثيرا على "ضرب الأمثال " فأجاد وأبدع وأغنى "رسائل النور" حتى يمكننا أن نقول: إن "ضرب الأمثال" هو الطابع المميز لرسائل النور...ولعل النص الآتي الذي نقتبسه من كلام الأستاذ النورسي يغني عن أي تعليق آخر، فاستمع إلى ما يقوله النورسي:

"انك يا أخي تسأل: لماذا نجد تأثيراً غير اعتيادي فيما كتبته في "الكلمات" المستقاة من فيض القرآن الكريم، قلّما نجده في كتابات العارفين والمفسرين. فما يفعله سطرٌ واحد منها من التأثير يعادل تأثير صحيفة كاملة من غيرها، وما تحمله صحيفة واحدة من قوة التأثير يعادل تأثير كتاب كامل آخر؟

---

(25) نفس المصدر .

فالجواب: وهو جواب لطيف جميل، إذ لما كان الفضل في هذا التأثير يعود إلى إعجاز القرآن الكريم وليس إلى شخصي أنا، فسأقول الجواب بلا حرج:

نعم! هو كذلك على الأغلب؛ لأن الكلمات:

تصديق وليست تصوراً.[26]

وايمانٌ وليست تسليماً.[27]

وتحقيق وليست تقليداً.[28]

وشهادة وشهود وليست معرفة.[29]

وإذعان وليست التزاماً.[30]

وحقيقة وليست تصوفاً .

وبرهان ضمن الدعوى وليست ادعاءاً

وحكمة هذا السر هي:

أن الأسس الإيمانية كانت رصينة متينة في العصور السابقة، وكان الانقياد تاماً كاملاً، إذ كانت توضيحات العارفين في الأمور الفرعية مقبولة، وبياناتهم كافية حتى لو

---

26 التصديق: هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى المخبر. بينما التصور: هو إدراك المعرفة من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات. وفي المنطق: التصديق هو إدراك النسبة التامة الخبرية على وجه الإذعان. والتصور: إدراك ما عدا ذلك.

27 مأخوذة من قوله تعالى: (قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) (الحجرات:14).

28 التحقيق: إثبات المسألة بدليلها بينما التقليد: قبول قول الغير بلا حجة ولا دليل.

29 الشهادة: هي إخبار عن عيان. والشهود: هو معرفة الحق بالحق. أما المعرفة: فهي إدراك الشيء على ما هو عليه، وهي مسبوقة بجهل بخلاف العلم.

30 الإذعان: عزم القلب، والعزم جزم الإرادة.

لم يكن لديهم دليل.

أما في الوقت الحاضر فقد مدّت الضلالة باسم العلم يدها إلى أسس الإيمان وأركانه، فوهب لي الحكيم الرحيم - الذي يهب لكل صاحب داء دواءه المناسب - وانعم عليّ سبحانه شعلةً من "ضرب الأمثال" التي هي من اسطع معجزات القرآن وأوضحها، رحمةً منه جلّ وعلا بعجزي وضعفي وفقري واضطراري، لأنير بها كتاباتي التي تخص خدمة القرآن الكريم. فله الحمد والمنة:

فبمنظار "ضرب الأمثال" قد أُظهِرَتْ الحقائق البعيدة جداً أنها قريبة جداً.

وبوحدة الموضوع في "ضرب الأمثال" قد جُمِّعَتْ اكثر المسائل تشتتاً وتفرقاً.

وبسلّم "ضرب الأمثال" قد تُوصِلِ إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويُسر.

ومن نافذة "ضرب الأمثال" قد حُصّل اليقين الإيماني بحقائق الغيب وأسس الإسلام مما يقرب من الشهود.

فاضطر الخيال إلى الاستسلام وأُرغم الوهم والعقل إلى الرضوخ، بل النفس والهوى. كما اضطر الشيطان إلى إلقاء السلاح.

حاصل الكلام:

انه مهما يظهر من قوة التأثير، وبهاء الجمال في أسلوب كتاباتي، فإنها ليست مني، ولا مما مضغه فكري، بل هي من

لمعات "ضرب الأمثال" التي تتلألأ في سماء القرآن العظيم، وليس حظي فيه الا الطلب والسؤال منه تعالى، مع شدة الحاجة والفاقة، وليس لي إلاّ التضرع والتوسل إليه سبحانه مع منتهى العجز والضعف.

فالداء مني والدواء من القرآن الكريم.[31]

16 - صفات الأديب الكبير

كل الصفات التي يفترض أن تتكامل في شخصية الأديب العظيم متوفرة في شخصية " النورسي " فمن هذه الصفات :

1- أن يكون الأديب الكبير ذا ثقافة واسعة ملمّاً بثقافة لغته وثقافات الأمم الأخرى .

2- أن يكون له نظرة فلسفية شاملة تشمل الحياة والوجود والدين والدنيا، وأن يكون قادراً بأدواته الفنية على إبراز ملامح هذه الفلسفة الشخصية أو هذه الرؤى والقناعات الفكرية إلى عالم الوجود والتأليف والشرح والتوضيح للناس .

3- أن يحمل رسالة سامية شريفة ويقف حياته وقلمه على خدمتها .

4- أن يملك القدرة العقلية والفكرية العالية إلى جانب خصوبة الروح والوجدان والمشاعر والاحساسات الإنسانية .

5- أن يملك الشخصية المستقلة والعقلية المتميزة وأن يفرض آراءه وأفكاره ومشاعره على القراء بما يملك من ثقة

31 المكتوبات/486-487

بنفسه، وحماس لمشاعره، وإيمان برؤاه وقيمه السامية ومكتشفاته في الكون والطبيعة والحياة .

6- أن تكون له خصوصيات وأحوال تحدد ملامح شخصيته فلا تختلط بخصوصيات شخصية أخرى.

7- أن تكون لديه موهبة جذب القارئ والتأثير فيه .

إن كل هذه الصفات والملامح الشخصية متوفرة في شخصية " سعيد النورسي " ولنستمع إلى بعض أقواله عن نفسه، أو أقواله العامة لنرى ونحس الطابع الأدبي والشخصية الأدبية المثالية التي وصلت القمة في عالم الأدب والفكر والروح والوجدان والدين .

18 - العزلة والخلوة

يقول " النورسي " عن نفسه :

(ولكن بعد هذه الفترة ولّيتُ وجهي كلياً عن الدنيا وقبرت " سعيد القديم " وأصبحت إنساناً جديداً يعيش للآخرة، فانسللت من حياة المجتمع ونفضت يدي من كل ما يخصهم، فاعتزلت الناس في " تل يوشع " في استانبول، ومن ثم في مغارات في جبل " وان " و " بتليس " بتُّ في مجاهدة مستديمة مع روحي ووجداني وانفردت بعالمي الروحي .. أخذتني الأقدار نفياً من مدينة إلى أخرى .. وفي هذه الأثناء تولدت من صميم قلبي معانٍ جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم . أمليتها على مَنْ حولي من الأشخاص تلك هي

الرسائل التي أطلقت عليها " رسائل النور " إنها انبعثت حقاً من نور القرآن الكريم) [32] .

19 - التراب الشاعر والصديق

وبالسياق مع مقولته الشهيرة " في المألوفات خوارق المعجزات " إذا ما دققنا النظر وسَبَرْنَا الغور، يلفت " **النورسي** " الانتباه إلى تراب الأرض، موطئ الأقدام، فمِنْ كثرة ما صحبناه وشهدناه وألفناه، لم يعد يثير انتباه أحدٍ، أما عند " **النورسي** " فهو واحدة من خوارق المعجزات الإلهية .. هذا الصامت المتكلم بألف لسان ولسان، كلامه النبت والزهر والشجر، أسير الأشواق، وشاعر اللون والشكل والصورة .. في ألوان الورود والزهر والثمر تتوهج جمرات قلبه، وعلى وجناتها يسطع مذاب فؤاده، ورقة حسه .. صديق الإنسان ورفيقه على مدى حياته وبعد مماته .. وجوده من طينته .. وإليه يعود في خاتمة حياته .. إذا مسه الإنسان فَجَّرَ أريحيته وحرك كوامن عطاياه فوهب له كنوزه، وأعانه على بناء حضارته، وإقامة صروح مدنيته، فيا له من صديق صدوق، ورفيق حنون .. وإليك الآن ما يقوله " **النورسي** "في التراب :

(اعلم : أن مما أفيض على قلبي من فيض القرآن الكريم ؛ كثرة ذكره " إحياء الأرض " ولفت أنظار البشر إلى " التراب " .. إن الأرض قلب العالم، والتراب قلب الأرض،

---

(32) انظر الشعاعات للنورسي ص 541 - ترجمة الصالحي .

وإن أقرب " السبل " إلى المقصود يذهب في التراب من باب التواضع والمحوية والفناء، بل هو اقرب من أعلى السماوات إلى خالق السماوات . إذ لا يُرى في الكائنات شيء يساوي التراب في تجلي " الربوبية " عليه، وفعالية القدرة فيه، وظهور الخلاقية منه، والمظهرية لجلوات اسمي " الحي القيوم " .

وهكذا .. فكما أن " عرش الرحمن " على الماء، كذلك إن " عرش الحياة والأحياء " على التراب، والتراب أجمع المرايا وأتمها، إذ مرآة الكثيف كلما كانت ألطف وأشف تريك صورة الكثيف أوضح وأظهر وأتم .. لكن مرآة اللطيف النوراني كلما كانت أكثف، كان التجلي عليها بالأسماء أتم، ألا ترى الهواء لا يأخذ من فيض الشمس إلا ضياءً ضعيفاً، والماء وإن أراك الشمس بضيائها لكنه لا يقدر على فصل ألوانه، مع أن التراب يريك بأزاهيره مفصَّل كلّ ما اندمج في ضيائها من الألوان السبعة ومركباتها، مع أن هذه الشمس قطرة ملتمعة كثيفة بالنسبة إلى نور شمس الأزل . وتَزَيُّنُ التراب وَتَبَرُّجُهُ في الربيع بما لا يُحدّ ولا يُعدّ من لطيفات الأزاهير، وجميلات الحيوانات المنادية على كمال ربوبيته شاهد مشهود . فسبحان من يتعرف إلينا بلطيف صنعه، ويعرّف الخلائق قدرته بعجائب تصرفه في التراب ..

ومما يرمز إلى هذا السرّ الحديث الشريف :(أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد)[33] فإذا كان هذا هكذا..فلا تتوحش من التراب وذهابك فيه، ولا تندهش من القبر وسكونك فيه) [34].

20 - مشاهد من حديقة الأرض

وإذا كان " **النورسي** " يرى في " تراب الأرض " عالماً مَوّاجاً بالحركة، متفجراً بالإمكانات والقدرات، منطوياً على الكثير من أسرار الخلق والخلقة، فهو يرى كذلك أن الأرض نفسها حديقة إلهية شاسعة الأرجاء، ولوحة فنية متناغمة الألوان، من أين نظرت إليها طالعتك بما يَشْدَهُ العين، ويهز أحاسيس الجمال في نفسك، ومن أية زاوية جئتها استقبَلَتْكَ بدفق هائل من صور الحسن التي تعكسها مرايا الجمال الكوني على صفحة الخيال البشري، طاهرةً طهارة الطفولة العذبة ترفُّ بها أجنحة السماء .

" والنورسي " يعبر عن هذه المعاني في القطعة الآتية التي أشبه ما تكون بالشعر الحر حيث يقول :

(سبحان من جعل حديقة أرضه :

مَشْهَرَ صنعته

---

33 تكملة الحديث : "فاكثروا الدعاء ": أخرجه مسلم برقم 482 وأبو داود برقم 875 والنسائي 2 / 226 عن أبى هريرة (وانظر كشف الخفاء للعجلوني 1 / 160)

(34) المثنوي العربي النوري ص 412 وانظر مختارات من المثنوي العربي النوري لكاتب هذه السطور ، ص 32 – 33 / الموصل / مطبعة الزهراء 1404 هـ – 1983 م .

محشر فطرته
مظهر قدرته
مدار حكمته
مزهر رحمته
مزرع جنته
ممر مخلوقاته
مسيل موجوداته
معرض مصنوعاته
تَبَسَّمُ الأزهار من زينة الأثمار
تسجُّعُ الأطيار من نسمة الأسحار
تَهَزَّجُ الأمطار على خدود الأزهار
تَرَحُّمُ الوالدات على الأطفال
الصغار
تعرُّف ودود
تَوَدُّدُ رحمن
تَحُنُّنُ مَنَّان
للجنِّ والإنسان
والروح والحيوان
والملكِ والجان
البذور والأثمار
والحبوب والأزهار
معجزات الحكمة

خوارق الصنعة
هدايا الرحمة
براهين الوحدة
شواهد لطفه في دار الآخرة
الشمس كالبذرة
والنجم كالزهرة
والأرض كالحبة
لا تثقل عليه بالخلق والتدبير
والصنع والتصوير
فالبذور والأثمار مرايا الوحدة
في أقطار الكثرة
إشارات القدر
رموزات القدرة
تلك الكثرة من منبع الوحدة
ثم إلى الوحدة تنتهي
والإنسان هو المقصود الأظهر
من خلق هذا الشجر
فالبشر ثمرُ لهذه الكائنات
وهو المقصود الأظهر
لخالق الموجودات
فالإنسان الأصغر
هو المدار الأظهر

للنشر والمحشر) [35].

21- الإنسان الكامل

يعلو الجمال مع علوّ أخيلة الروح، وَيَرِّفُ مع أشواق القلب، وتسمو الذات البشرية بما تناله من أذواقه، وتحوزه من معانيه، وإذا ما سرى روح الجمال إلى باطن الفكر ارتفع قدره، وتقدَّس سرّه، وَشَرُفَتْ مقاصده، وَسَمَتْ غاياته، وجادتْ قرائحه، وانجذبت إليه الموجودات، وحفلت به الكائنات . واكتسب صفات " الإنسان الكامل " كما هو قائم في خيال الكون، وكما حَلُمَتْ به البشرية، وَبَشَّرَتْ به الأديان، فتنـزل عليه - عند ذاك - ألطاف ربه، ورحمات خالقه، ويصير جديراً بأن تُخلق من أجله الأفلاك، وتتزين لناظريه الأرض، وتُزفُّ إليه الطبيعة . ولعظم المهمات الملقاة على عاتقه، زوده خالقه بالقدرات والطاقات، وأطلق لقواه العنان، ولم يحدد لها حداً تقف عنده، ولم يضع من دونها حاجزاً يحجزها عن السريان حيث تشاء، وكأنه - تعالى - يقول له :

أيها الإنسان يا مَنْ خلقته لنفسي، وصنعته مرآة لأنوار تجلياتي، انطلق ولا تقف، امض حيث تمضي بك قواك، وسِرْ حيث تسير بك أفكارك ومشاعرك .. استجمع كل لطائفك، واحشد كل طاقاتك، ولملم ما تشتت من نفسك وعقلك، وافتح منافذ حواسك، لتعرف وتذوق، وتتلهف وتشتاق، ثم لتعكس

---

(35) المثنوي العربي النوري – النورسي ص 145 وانظر المختارات ص 97 – 99 .

مرآة روحك لمعات من الجمال الأقدس الذي كل جمال إنْ هو إلاّ قبسة من قبساته ،وقطرة من بحار أنواره.

وحول هذه المعاني يدور أدب " النورسي " في القطعة الآتية :

(اعلم! انه يلزم لمثل هذه التزيينات والكمالات والمناظر الحسنة وحشمة الربوبية وسلطنة الألوهية، من مشاهد لها، ومتنـزه بها، ومتحير فيها، ومتفكر ينظر إلى أطرافها ومحاسنها، فينتقل منها إلى جلالة صانعها ومالكها واقتداره وكماله.

نعم، إن الإنسان مع جهالاته وظلماته له استعداد جامع كأنه أنموذج مجموع العالم، وأودع فيه امانةً يفهم بها الكنـز المخفي ويفتحه. ولم يُحدد قواه، بل اُرسلت مطلقة فيكون له نوع شعور كلي بشعشعة كمال حشمة جلال سرادق جمال عظمة ألوهية سلطان الأزل. وكما أن الحُسن يستلزم نظر العشق، كذلك ربوبية النقاش الازلي تقتضي وجود نظر الإنسان بالتقدير والحيرة والتحسين والتفكر، وتستلزم ايضاً بقاء ذلك المتفكر المتحير إلى الأبد ورفاقته لما تحير فيه في طريق أبد الآباد.

نعم، إن من زيّن وجوه الازاهير كما أوجد لها عشاقاً مستحسنين من أنواع الذبابات والعصافير، وزيّن خدود الملاح فأوجد لها أنظار المشتاقين الوالهين.. كذلك من زين وجه العالم بهذه الزينة الجاذبة، ونوّر عيونه بهذه المصابيح

المتبسّمة وحسّنه بأنواع المحاسن المتلألئة، وادمج في كل نقش بكمال الوضوح توددا وتعرفا

وتحببا، لا يخليه من أنظار مشتاقين متحيرين متفكرين منجذبين عارفين بقيمة كل؛ فلجامعية الإنسان صار الإنسان الكامل سبب خلق الأفلاك علة غائية له وثمرة له..)[36].

22- " النورسي " ناقداً

إن عظمة الفكرة وصدقها وأصالتها، هي التي تعطي الكلمات والألفاظ التي تحملها شيئاً من خصائص عظمتها وقوتها، فيصبح اللفظ - مطية الفكر - قوياً وعظيماً بعظمة ما يحمل من أفكار يراد منه التعبير عنها مهما كانت درجة هذا اللفظ متواضعة في رأي البلاغة والجزالة . ويبقى الكلام ضعيفاً وهشاً عندما تكون الفكرة بحد ذاتها ضعيفة وهشة، مهما حاول صاحبها أن يزين كلامه ويموهه في عيون قرائه

.

والاهتمام باللفظ قبل المعنى، وبالشكل قبل المحتوى، انتكاسة أدبية وحضارية تعتري الأمة في حال ضعفها، وعندما يصاب عقلها بالوهن والهزال، وقد مرت بهذه الأمة هذه الانتكاسة في فترات سود من تاريخها الأدبي والفكري، ومازالت - مع الأسف الشديد- بقايا هذه الظاهرة المرضية تطل برأسها بين الحين والآخر من أقلام البعض من أدباء

---

(36)المثنوي العربي النوري – النورسي ص 311 وانظر المختارات ص 67 – 68 .

هذه الأمة على الرغم من الجهود المضنية التي بذلها ويبذلها النقاد لإنقاذ الأقلام من آثار هذا النهج المرضي.

و" النورسي " أديب أفكار ومعان، وصاحب رسالة إيمانية يريد أداءها إلى قرائه من أقصر الطرق، مقتصداً بالكلمات ما وسعه ذلك، فأسلوبه أسلوب برقي تلغرافي- إذا صح التعبير- يعنى بالفكرة ووصولها إلى القارئ بشكل عفوي دون زخارف كلامية، أو طبول لفظية فارغة.

وفي تحليله لأسباب رواج أدب الألفاظ في بعض فترات تاريخ الأمة يقول "النورسي":

"يخبرنا التاريخ بأسف بالغ إنه: لما انجذب الأعاجم بجاذبة سلطنة العرب فسدت بالاختلاط ملكة الكلام المضري، التي هي أساس بلاغة القرآن، إذ لما تعاطى الأعاجم والدخلاء صنعة البلاغة العربية، حولوا الذوق البلاغي من مجراه الطبيعي للفكر، وهو نظم المعاني إلى صنعة اللفظ، وذلك إن المجرى الطبيعي لأنهار الأفكار والمشاعر والأحاسيس إنما هو نظم المعاني، ونظم المعاني: هو الذي يُشَيَّدُ بقوانين المنطق. وأسلوب المنطق: متوجه إلى الحقائق المتسلسلة...والفكر الواصل إلى الحقائق: هو الذي ينفذ في دقائق الماهيات ونسبها...هي الروابط للنظام الأكمل في العالم، والنظام الأكمل: هو المندمج فيه الحسن المجرد الذي هو منبع كل حسن. وتلك الجنة المزهرة ودقائق الماهيات ونسبها: هي التي تجول فيها بلابل عاشقة للأزاهير

المسماة بالشعراء والبلغاء وعشاق الفطرة...ونغمات تلك البلابل يمدها صدى روحاني هو نظم المعاني ".

ويمضي قائلا:

ولكن لما حاول الدخلاء والأعاجم الدخول في صفوف الأدباء فلت الأمر، لأن مزاج الأمة مثلما أنه منشأ أحاسيسها ومشاعرها، فأن لسانها القومي يعبر عن تلك المشاعر ويعكس تلك الأحاسيس. وحيث أن أمزجة الأمة مختلفة. فاستعداد البلاغة في ألسنتها متفاوت أيضاً. ولا سيما اللغة العربية الفصحى المبنية على قواعد النحو.

وبناءا على هذا فأن نظم اللفظ الذي هو أرض قاحلة لا تصلح لأن تكون مسيلاً لجريان الأفكار، ومنبتاً لأزاهير البلاغة، وقد أعترض مجرى البلاغة الطبيعي وهو نظم المعنى فَشَوَّشَ البلاغة.

ثم يمضى قائلا:

فداروا -أي أولئك الأدباء - حيث دار اللفظ بعد تصور المعاني، بل حتى غلب اللفظ المعنى وسخره لنفسه، فاتسعت المسافة بين طبيعة البلاغة، وهي كون اللفظ خادما للمعنى، وصنعة العاشقين للفظ. فأن شئت فادخل في "مقامات الحريري" فأنه مع جلالة قدرة في الأدب فقد استهواه حب اللفظ وبذلك أخل بأدبه الرفيع، فأصبح قدوة للمغرمين باللفظ، حتى خصص "الجرجاني" -ذلك العملاق- ثلث كتابيه "دلائل الأعجاز" و "أسرار البلاغة" دواءً لعلاج هذا الداء.

نعم إن حب اللفظ داء، ولكن لا يعرف أنه داء!

وينبه فيقول: كما أن حب اللفظ مرض، كذلك حب التصوير "الفني" وحبُّ الأسلوب، وحب التشبيه، وحب الخيال، وحب القافية مرض مثله، بل ستكون هذه الأمراض بالإفراط أمراضاً مزمنة في المستقبل، كما تبدو البوادر من الآن حتى يضحى بالمعنى في سبيل ذلك الحب.

ويستطرد فيقول: نعم...! اللفظ يُزَيِّنُ ولكن إذا اقتضته طبيعة المعنى وحاجته...وصورة المعنى تُعَظَّمُ وتُعْطَى لها مهابة ولكن، إذا أَذِنَ المعنى، والأسلوب يُنَوَّرُ ويُلَمَّعُ ولكن إذا ساعده استعداد المقصود...والتشبيهُ يُلَطَّفُ وَيُجَمَّلُ ولكن إذا تأسس على علاقة المقصود وارتضى به المطلوب...والخيال يُنَشَّطُ ويُسَيَّحُ ولكن إذا لم يؤلم الحقيقة. ولم يثقل عليها، وأن يكون مثالا للحقيقة متسنبلاً عليها.[37]

ويقول عن الخيال: "لابد في كل خيال من نواة من حقيقة"

ويقول عن الأسلوب: فالأسلوب بهذا قالب الكلام، كما هو معدن جماله ومصنع حلله الفاخرة.

ويقول كذلك: "فإذا أنعمت النظر في أسلوب الكلام-الكلام الطبيعي الفطري- ترى المتكلم في مرآة الأسلوب، حتى كأن نَفْسَهُ في أنْفَاسِهِ بذاتِه وماهيتُه في نفثاته، وصَنْعَتُهُ ومِزَاجُهُ ممتزجان في كلامه "[38]

---

(37) صقيل الإسلام 116،115،114/ترجمة وتحقيق إحسان قاسم الصالحي 1411هـ-1991م.

(38) المصدر نفسه ص 118-119.

ويقول كذلك: " إن قوة الكلام وقدرته: أن تتجاوب قيوده، وتتعاون كيفياتُهُ، وَيَمُدُّ كُلٌّ بِقَدَرِهِ مشيرا إلى الغرض الأصلي، ويضع إصبعه على المقصد، فيكون مثالا ومصدرا لدستور:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

وكأنَّ القيود مسيلٌ ووديانٌ، والمقاصدُ حوضٌ في وَسَطِها تستمدُّ منه.

حاصل الكلام: يلزم التجاوب والتعاون والاستمداد لئلا تتشوش صورة الغرض المرتسمة على شبكة الذهن والملتقطة بنظر العقل.

ويقول: ينشأ التناسب ويتولد الحسن ويلمع الجمال بنشوء الانتظام من هذه النقطة.

فتأمل في كلام رب العزة: (وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ)(الأنبياء:46) المسوقة للتهويل، وتخويف الإنسان، وتعريفه بعجزه وضعفه. فبناءً على القاعدة البيانية: "ينعكس الضد من الضد" ترى الآية الكريمة تبين تأثير القليل من العذاب بقصد التهويل والتخويف، فكل طرف من الكلام يمد المقصد -وهو قليل- عن جهته وذلك بـ:

التشكيك والتخفيف في لفظ " إنْ ".

والمس وحده دون الإصابة في " مَسَّتْ " .

والتقليل والتحقير في مادة " نفحةٌ " وصيغتها وتنكيرها.

والتبعيض في " مِنْ ".
والتهوين في " عذاب " بدلاً من " نكال ".
وإيماء الرحمة في "ربك ".
كل ذلك يهول العذاب ويعظمه بإراءة القليل، إذ إن كان قَلِيْلُهُ هكذا فكيف بعظيمه .. نسأل الله العافية![39]

وفي مكان آخر يقول "أي إن البليغ يتمثل أشعة الحقائق المنعكسة من الخارج كالمرآة وكأنه يقلد الخلقة، ويحاكي الطبيعة بصنعته الخيالية وبنقش كلامه"[40]

ويقول عن فن الكتابة: " وينبغي أيضا مساوقة الطبيعة والتتلمذ عليها بصنعة المتكلم الخيالية، كي تنعكس قوانينها في صنعته "[41]

ويقول عن قلب الأديب ولسانه " وكثيراً ما لا يفهم اللسان فهماً تاماً لغة القلب، لا سيما إن كان القلب يئن في غور المسائل وفي أعماق بعيدة كغيابة الجب فلا يسمعه اللسان، وكيف يترجمه؟"[42]

* * *

نخلص مما تقدم من آراء "النورسي" النقدية في الأدب والأدباء إلى أن العمل الأدبي هو عمل فكري مُهَنْدَسٌ يستوي على قاعدة، صلبة حجرُ الأساس فيه معرفةُ المقصودِ من

---

(39) المصدر نفسه ص 121-122.
(40) المصدر نفسه ص 131.
(41) المصدر نفسه ص 136.
(42) المصدر نفسه ص 141

العمل كُلّهِ لتدور عليه وحوله ما يُشيَّدُ من هياكل بنائية تسهم في إقامتها روح الأديب ووجدانيات الكلمات والألفاظ المستخدمة في عملية التشييد بمدلولاتها الوجدانية والروحية والفكرية، مستفيدا مما كان قد تعلّمَهُ من الطبيعة والحياة، ومن ملامسته لروح المنطق في عملهما في الهدم والبناء فيجعله مسطرا يقيس عليه نسب المدلول الكلامي بين الكلمة والكلمة، والفكرة والفكرة، وبذلك يأتي العمل الأدبي متكاملا مقنعا مؤثرا في المتلقي، وهو المطلوب من كل عمل أدبي.

23- العالمية في أدب "النورسي"

أن الأعمال الأدبية الكبرى التي نالت الخلود على مر الدهور والعصور، هي تلك الأعمال التي تعالج قضايا الإنسان ذات المساس الصميمي بقلبه وروحه، وبمصيره ومآله، فهي سرعان ما يعرفها العالم وتتلقفها الشعوب، وتقرأها بشغف، وتجد أصداء لها في روحها وجوهر وجدانها.

فالأعمال الأدبية حتى الأسطورية منها تَحْظَى باهتمام بالغ من مختلف الشعوب إذا كانت تدور حول مكتشفات الإنسان ومغامراته من أجل نيل الخلود، هذا الحلم الذي راود البشرية منذ طفولتها وحتى اليوم.

وعلى الرغم من أن "رسائل النور" النورسية تُرْجِمَتْ إلى بعض لغات العالم واستُقْبِلَتْ هناك بحفاوة وتقدير كبيرين، باعتبارها رسائل "إيمانية" معنية بالدرجة الأولى بالجوانب

الإيمانية لدى الإنسان وهي لا تخلو من لمحات أدبية وفنية بين سطورها وأفكارها، إلا أن كتابه الأدبي الأعظم وهو "المثنوي العربي النوري" ما زال مجهولا ككتاب أدبي فريد يمكن أن يشق طريقه بجدارة إلى العالمية التي حازها من قبله "مثنوي الرومي" إذا ما حظي بالترجمة المتقنة إلى إحدى لغات العالم المعتبرة.

فهذا الكتاب يعبر عن أحلام القلب البشري في الخلود، ويُرَنِّمُ شجاه، ويُنْشِدُ وَجْدَهُ، ويُفْصِحُ عن آلامِهِ وآماله وحنينه إلى عالم مصنوع من الجمال والحق والعدل، لذا فهو يَمُتُّ بصلةٍ إلى كل قلبٍ، ويضرب بِعِرْقٍ نابضٍ في جذر كل روح.

وحتى الأرواح الحبيسة في سجون سحيقة من التردي يمكنها أن تجد في هذا الكتاب مفاتيح الانطلاق مع أجنحة الخيال إلى حيث تلتقي حقيقتَها السامية الآتية من عالم "الأمر الإلهي" متجاوزة بذلك مفاوز الفناء التي تعم الكرة الأرضية. ومتعاليةً فوق الآفلات الفانيات من رموز الحياة والتي تئن تحت مطارق البلى ومعاول العدم، بينما يَظَلُّ سمع الأرض تَصُكُّهُ هتافاتُ الأرواح في الأعالي مع روح "النورسي" مرددة مع إبراهيم عليه السلام : (لا أحبُ الآفلين) (الأنعام:76).

إن سنا الإشراق، ولمعة الاحتراق المنبعثة من صفحات هذا الكتاب تذيب أية مغاليق وأقفال على القلب والفكر والروح، فكما تجد فيه الأرواح محركات منطلقاتها، فكذلك

الأفكار تجد فيه منطلقات مجنَّحة غير نمطية ولا تقليدية بل ابتكاريه إنبعاثية مثيرة للتفكير العميق والأصيل.

ولا يعدم القارئ تفسيرا للغز الكون والحياة، ومعرفة الحكمة من خلقهما، والمغزى من وجود الإنسان في هذه الحياة وما ينتظره في الآخرة. وإنه لينشئ في القارئ حسَّاً جمالياً وشعوراً مرهفاً يسمو بأذواقه، ويفتح منافذ الإدراك فيه ليدرك عن كثب أن الجمال هو جوهر الأرض، وأن ما يتفتق عنه التراب من روائع الأزهار والأوراد بألوانها وأشذائها وعجائب حسنها آية ذلك الجمال، وإشارة إليه. وهو لا ينفك يُقَدِّمُ العزاء والمواساة لصاحب الرغبات المحبطة والتي تشكل أكثر أوجاعه آلاماً، وَيُقَدِّم له تفسيراً مقنعاً يَجْعَلُهُ يرى المحنَ منحاً، والإحباطاتِ إرهاصاتٍ لنجاحاتٍ قادمةٍ، وإنه ليغسلُ نفسَ الإنسان من أوجاعِ الألفة والرتابة والملل، ويضعه من دون هذه الحواجز وجهاً لوجه مع الموجودات يحاورها وتحاوره، فتبعث فيه حيوية إيجابية نشيطة تجعله أكثر استمتاعاً بالحياة، وأكثر تفهماً لها وإدراكاً لمعانيها الإلهية.

وتعبيراً عن أشواقه إلى الخلود، وإشفاقه من الزوال يصرخ "النورسي" هاتفاً في حزن أليم:

"لا أريد...مَنْ كان زائلاً لا أريد.

أنا فانٍ...مَنْ كان فانياً لا أريد.

أنا عاجزٌ...مَنْ كانَ عاجزاً لا أريد.

سَلَّمْتُ روحي للرحمن، سواه لا أريد.
بل أُريد.
حبيباً باقياً أريد.
أنا ذَرَّةٌ.
شمساً سرمداً أريد.
أنا لا شيءَ ومِنْ غيرِ شيءٍ، الموجوداتِ كُلَّها أُريد.
* * *
لا تدعوني إلى الدنيا، جئتها وشاهدتُ الفساد.
إذ الغفلةُ حجبتْ أنوارَ الحق.
رأيتُ الأشياءَ والدنيا أعداء ضارين.
ذُقتُ اللذائذُ، ولكن.
وَجَدْتُ الألمَ في الزوال.
أما الوجودُ فقد لبِسْتُهُ.
آه...لا تَسَلْ كَمْ عانيتُ من الألم في العدم.
وإن قلت الحياة.
فقد رأيتها عذاباً في عذاب.
نعم، لما استتر نور الحق عني.
ورأيت البقاء بلاء.
والكمالَ هباء.
والعمر ذهب أدراج الرياح.
نعم!
بدونه، انقلبت العلوم أوهاماً، وأصبحت الحِكَمٌ أسقاماً.

والأنوارُ ظلماتٍ ،
والأحياءُ مواتاً .
والأشياءُ أعداءً .
ولمستُ الضُرَّ في كل شيءٍ .
والآمالُ انقلبت آلاماً .
والوجودُ هو العدم بعينه .
والوصالُ زوالاً .
والألم يعصرني مما لا بقاء فيه،
نعم . . ! إن لم تجد الله فالأشياء كلها تعاديك .
أذى في أذى .
بل هو عين الأذى . وإن وجدتَ اللهَ، .
فلا بد أن تجده في ترك الأشياء .
فقد رأيت بذلك النور : الجنة في الدنيا .
والأموات كلهم أصبحوا أحياء .
والأصوات كلها أذكار وتسابيح .
والأشياء كلها مؤنسة .
واللذائذ في الآلام نفسها .
والحياةَ أصبحتْ مرآة تعكسُ أنوارَ الحق .
والبقاءَ رأيتُهُ في الفناء .
والذراتِ ألسنةً ذاكرة .
يقطر من ألسنتها ويتفجر من عيونها شَهْدُ شَهَادَةِ الحق .

وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد".[43]

24- الإنسان الخارق

فكر حيّ لا يموت .. وروح ثاقب متوهج لا ينطفئ .. وقلب بصير صادق الرؤية .. شهد سجود العالم بين يدي الله .. وسمع تسابيح الكائنات والموجودات في الأرض والسماوات .. من كفكف دَمْعَ الإنسانية الباكية على نفسها غيره .. مَنْ مَسحَ قلبَ الإنسانِ من آلام الزيغ والضلال سواه .. مَنْ خاضَ بحارَ الجمالِ الإلهي وأخذ الإنسان إليه معه .. مَنْ وَهَبَتْهُ الكائناتُ نَفْسَها، وَمَنَحَتْهُ حقَّ الكلام عنها وأوكلتهُ برفع تسابيحها إلى خالقه .. مَنْ لمس قلبَ الوجودِ بأنامل الودِّ والمحبَّةِ .. مَنْ نَشَرَ في أحشاءِ الكونِ الأمنَ والسلامَ .. مَنْ عَرَّفَ الإنسانَ بنفسهِ، وحل لُغْزَ خلقهِ .. مَنْ رَفَعَ الأرضَ إلى السماءِ وحَمَلَ أمانة الارتقاء بالإنسانِ إلى ما فوقَ الكونِ وتحتَ سِدْرَةِ المنتهى .. من صيَّر ليلَ البشرِ نهاراً، وشتاءَهُ ربيعاً .. مَنْ حوّل يُتْمَ الكونِ وبكاءَهُ إلى عيد بهيج .. من أحيا مَوَاتَ الروح، وغرسَ في القلبِ الخلودَ .. من ارتقى فوق الزمانِ والمكانِ، وعلا فوق أطباق العقول حتى وقف في برزخ بين الإمكانِ والوجوب .. من صار شمساً للكون، وعينا ً للوجود، ولساناً للخلائق، ودلالاً لمحاسن سلطنة الربوبية .. من صار مثالاً للرحمة الربانية، وتمثالاً للمحبة الرحمانية، وشرفاً للحقيقة الإنسانية .. ؟ !

---

43 المثنوي العربي النوري – النورسي ص289

مَنْ غيرُ محمدٍ ρ كانَ كُلُّ ذلكَ وفوقَ ذلك، والآن إليك هذه القطعة الأدبية " النورسية " التي تتناول هذه المعاني :

(اعلم . . ! إنّ للمحيط الزماني والمكاني تأثيراً عظيماً في محاكاة العقول. . ! فإن شئت فتعال نخلع هذه الخيالات الزمانية والعصرية والمحيطية، ونتجرد من هذا اللباس الملوث، ثم نخوض في بحر الزمان السيال، ونسبح فيه إلى أن نخرج إلى عصر السعادات التي هي الجزيرة الخضراء فيما بين العصور والدهور، فلننظر إلى جزيرة العرب التي هي المدينة الشهباء في تلك الجزيرة الزمانية . ولنلبس ما نَسَجَ لنا ذلك الزمان، وخاطه لنا ذلك المحيط، حتى نـزور ولو بالخيال ـ قطب مركز دائرة الرسالة، وهو على رأس وظيفته يعمل .

فافتح عينيك وانظره . . ! فأن أول ما يتظاهر لنا من هذه المملكة : شخص خارق له حسن صورة فائقة، في حسن سيرة رائعة، فها هو آخذ بيده كتابا معجزاً كريماً، وبلسانه خطاباً موجزاً حكيماً، يبلغ خطبة أزلية ويتلوها على جميع بني آدم، بل على جميع الجن والأنس، بل على جميع الموجودات .

فيا للعجب ..! ما يقول ..؟ نعم، يقول عن أمر جسيم، ويبحث عن نبأ عظيم، إذ يشرح ويحل المعمى العجيب في سر خِلْقَةِ العالم، ويفتح ويكشف الطلسم المغلق في سر حكمة الكائنات ويوضح ويبحث عن الأسئلة الثلاثة التي أشغلت

العقول، وأوقعتها في الحيرة. إذ هي الأسئلة التي يسأل عنها كل موجود وهي: من أنت ؟ومن أين ؟ وإلى أين ؟) [44]

ثم يستطرد قائلاً : (أنظر إلى هذا الشخص النوراني كيف ينشر من الحقيقة ضياء نواراً ومن الحق نوراً مضيئاً حتى صير ليل البشر نهاراً وشتاءه ربيعاً، فكأن الكائنات تبدل شكلها فصار العَالَمُ ضاحكاً مسروراً بعدما كان عبوساً قمطريراً) [45]

25- الفناء والأبد

أي أعماق مجهولة غامضة يسبرها قلم هذا الرجل العجيب في أكوان الروح وفي سماوات القلب ؟ ! حتى إذا أوغل صعداً، وعلا مشارفاً، تراءت له " الدنيا " من الأعالي فإذا هي باطل في باطل، وعَرَضٌ زائل، وخيال ذاهب .. وإذا بفضاء الروح يشتعل ببوارق الأبدية الخاطفة، ولوامعها الكاشفة، وإشاراتها الهادية .. حتى إذا عاد من رحلته تلك توجه إلى الإنسان هاتفاً :

أيها الإنسان المقهور الذاهب في حزنه وأساه .. توقف . . .عد .. لا تيأس .. ها هو بسيط الأبدية يَمْتَدُ أمام ناظريك، أمّم نحوه .. سر إليه .. اجتز شعابه ثم الق بنفسك في أحضانها وبين يديها .. ماذا تنتظر أيها الإنسان .. أجزاء من نفسك ذهبت دفينة الماضي .. وها هي أجزاء أخر يضمها رمس

(44) المثنوي العربي النوري ص69.
(45) المصدر نفسه ص 57.

يومك .. وبقاياك سيحملها الآتي من الزمان إلى ظلمة قبرك .. فما المنقذ ؟ وكيف ؟ وأنَّى ؟ قلبك زورق نجاتك فدعه يأخذك إلى ضفاف الأبدية .. روحك سفينة خلاصك فدعها تأخذك إلى أبواب الخلود .. عبراتك المرار جمرات نار أحرقت فؤادي .. وويلات الفزع المرعب من أشداق الفناء ملأتني إشفاقاً عليك .. جئت لأحمل إليك عزاءً مفعماً بالأمل والرجاء في عالم أخروي لا موات فيه ولا فناء لتقر عيناً، وتفرغ روعاً .. إزْجاؤك للأبدية .. أو إزجاء الأبدية إليك صار أكبر همي، وأعظم حملي، ومحور رسالتي .. أنا ما أتيتك بجديد فقلم القدرة قد كتب في فطرتك ميلاً إلى الأبد، وأملاً في الخلود .. أنا جئت أذكرك فقط بفطرتك وبما تنطوي عليه روحك من معاني الأبد والخلود.

والآن اصغ إلى " **النورسي** " في هذه المناجاة اللهيفة الصادقة المنبثقة من أعماق قلبه حيث يقول : (يا رب . . ! لقد بحثت في الجهات كلها " الجهات الست " فلم أجد دواءً لدائي .

فنظرت إلى اليمين، وإذا بقبر أبي بالأمس .

ورنا بصري نحو اليسار، فإذا قبري في الغد .

وهذا اليوم هو تابوت يحمل جسمي المضطرب .

فجنازتي ماثلة أمامي فوق رأس عمري .

وتحت الأقدام ماء خلقتي ونخاع عظامي ممزوجين .

وكلما نظرت إلى الخلف رأيت هذه الدنيا سراباً في سراب .

وإذا ما امتد نظري إلى الأمام، فالقبر فاتح فاه، وطريق الأبد يتراءى من بعيد .

وإني لا أملك سوى " الجزء الاختياري " وهو عاجز، قاصر عديم الجدوى .

إذ لا مجال له للحلول في الماضي، ولا النفوذ إلى المستقبل .

وإنما ميدان تجواله هو : زمان الحال، وآن واحد سيال .

وعلى الرغم من هذا الفقر والضعف فقد كتب قلم قدرتك في الفطرة ميلاً إلى الأبد أملاً في الخلود .

فدائرة الاحتياج واسعة سعة امتداد النظر، فأينما يصل الخيال تصل الحاجة أيضاً .

بينما دائرة اقتداري قاصرة .. كاليد .

ففقري وحاجتي بسعة الدنيا إذن .

ورأس مالي مثل " الجزء الذي لا يتجزأ " فأين هذا الجزء من تلك الحاجات التي تسع الكائنات.. ؟ ولكني أنطلق في سبيلك من هذا الجزء كي أحظى بعنايتك .

إن رحمتك المطلقة ملاذي .

فالذي يجد فيضاً من الرحمات، لا يعتمد على هذا الجزء الاختياري الذي هو قطرة من سراب .

يا رب .. ؟ هذه الدنيا ما هي إلا كالمنام، وهذا العمر يذهب أدراج الرياح .
والإنسان فان بفناء الدنيا، والآمال الفانية آلام في البقاء .
تعالي أيتها النفس التي لا حدود لها ضحي بوجودك الفاني
.
فخالقك الذي بيده الوجود .. موجود .
له الملك وهو المعطي، فافن نَفْسَكِ كي تجد النفس البقاء .
وذلك بسر : نفي النفي إثبات .
يا إلهي .. يا ذا الجود والكرم هب لي ملكاً من عندك .
وأعطني قيمة لا حدود لها، فأنك أنت الحفيظ). [46]

26-بين العرش والقلب

قَلبُكَ كُلُّكَ أيها الإنسان .. وكُلُّكَ طَوْعَ قلبك .. وكلك وقلبك يعتصر أحدهما نفسه في الآخر .. إلا أن قلبك يظل العرش الذي يُظِلُّكَ عندما تتخلى عنك ظِلالُ الآفلات الفانيات من الأشياء التي لا جدوى من تعلقك بها .. فإذا ما انْخَلَعتَ عنها، أو انخلعَتْ هي عنك وصلت إلى الكشف الماورائي الذي يحجب عنك عوالم الغيب بعروشها، وعندئذ سترى أن ما بين عرش الرحمن وقلبك نسبة ضئيلة من العرشية تُظِلُّ وجُوْدَكَ الذاتي كما يُظَلُّ عرشُ الرحمن العالمَ .. فإذا ما بارحتْ روحُكَ مسكنَها الطيني، وأشرفَتْ على العالم من فوق فسترى الظاهر مرآةً للباطن، والباطنَ مرآةً للظاهر، والملكَ ظِلَّ

(46)المثنوي العربي النوري ص 198 .

الملكوت، والملكوتَ ظِلَّ المُلْكِ، وأن اسميه تعالى (الظاهر - والباطن) يعملان في الخلق سوية بلا حدود بينهما، فإذا الظاهر باطن، والباطن ظاهر في علم الله تعالى الكلي.

ويبقى ومض العقل مسباراً ممدوداً يَتَحسَّسُ خبايا البواطن في الأكوان والمكونات، ليزداد معرفة ويَخْصُبُ إدراكاً، وإذا كان لهذا العقل قدرة نسبية على تفسير المجردات إلا أنه أعجز ما يكون عن تفسير نفسه، لأن الومضة و القدحة الآتية من النور الكلي لا يقدر على تفسيرها إلا النور الكلي نفسه، فسبحان من بيده عرش القلوب والعقول، والملك والملكوت. والنورسي يلامس هذه المعاني في القطعة الأدبية الآتية حيث يقول !

(اعلم .. أن العرش كالقلب، فقلبك فيك ملك وأنت في قلبك ملكوت، ففي دائرة الاسم الظاهر، العرش العظيم محيط بالكل، و في دائرة الاسم الباطن هو كالقلب للكون . وفي الاسم الأول - الظاهر - يشار إليه بـ (وكان عرشه على الماء) (هود:7)، وفي الاسم الآخر -الباطن - يرمز إليه بـ (وسقف الجنة عرش الرحمن)[47]، إذ لعرش من هو الأول

---

47 (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض،والفردوس أعلى الجنة وأوسطها، وفوقه عرش الرحمن..) الحديث صحيح : رواه ابن ماجة عن معاذ والحاكم عن عبادة بن الصامت وعن أبي هريرة، وابن عساكر عن أبى عبيدة الجراح ، رضي الله عنهم. (صحيح الجامع الصغير وزيادته 3116) قال المحقق: صحيح وانظر الأحاديث 3423، 4120 من المصدر نفسه، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة 919 يشير إلى حديث: سقف الجنة عرش الرحمن.

والآخر، والظاهر والباطن حصة من الأولية والآخرية والظاهرية والباطنية ..) [48]

27-الجمال بين الحقيقة والمجاز

إذا رحل الجمال فجأة أورث حسرة وعذاباً .. وإذا غاب الحسن على حين غرة هوى العاشق في أشد أحشاء اليأس حلكة .. وجزيرة الحب في روح المحب الحافلة بالسلام والبهجة سرعان ما تتعرض لأشد الأنواء عصفاً إذا ما جاب قرارة قلبه ولم يجد سوى بقايا جمال محطَّمٍ ابتلعه يَمُّ الزمان وغدا ذكرى من الذكريات الماضيات، والذي يعيش تحت سماء العشق الناعمة الزرقاء الصافية يجن جنونه عندما يرى السنة نار الفراق وهي تأكل ذلك اللطف الوديع من فوقه وتحيله إلى دخان ورماد .

هيا أيها العُشَّاق .. ! يا شعراء الحُبِّ والجمال .. املأوا الدنيا نواحاً، أغرقوها دموعاً على جمال عندما جئتموه لم تجدوه غير سراب .. وعلى عشق تاه وضل طريقه وأخطأ حبيبه، وعلى آمال ضائعات في محبوب مضى وتوارى ولم يخلف وراءه سوى أخاديد عميقة من الألم في الروح والقلب.

لماذا المجاز - يا عشاق -إذا كانت الحقيقة أقرب إلينا منه .. ولماذا نرمز ونُكَنّي إذا كنا قادرين على أن نشير ونصرح .. ولماذا الركض وراء السرابات إذا كانت الينابيع الثرى تجري من تحتنا .. ؟

---

(48) المثنوي العربي النوري – النورسي ص195.

كل جمال على الأرض هو رمز لجمال في السماء، والحسن في عالم الشهادة خيال لحسنٍ في عالم الغيب .. والمحبوبات والمعشوقات هنا على الأرض إنما هي أطياف وظلال وخيالات وصور عكستها مرايا المغيبات .. وما يظنونه في المعشوق من بقاء فهو وَهْمٌ وإلى زوال سيمضي .. وما يزعمونه من خلود فسيلتهمه الفناء يوماً ما .

فالجمال عند " النورسي " مجازي وحقيقي، فالمجازي وَهْمٌ لا يسعد قلباً ولا يروي روحاً، لأنه زائل حائل لا ثبات له ولا بقاء، أما الحقيقي فهو روح الروح، وحياة القلب، يبقى ببقاء العاشقين، ويبقون هم ببقائه، ويخلدون بخلوده، ويحيون بحياته، فالقلوب له خُلِقَتْ وله رُصدت، وأي انحراف عنه إنما هو انحراف عن جوهره وحقيقة فطرته لابد أن يعاني من جرّائه شتى صنوف الألم والعذاب، وإلى ذلك يشير **النورسي** قائلاً :

"اعلم! أيها السعيد المجنون المحزون !إن مثلك كمثل صبي أبله قعد على ساحل البحر يبكي دائما لزوال الحبابات المتشمسة. كلما زال واحد بكى عليه ظناً منه انطفاء الشُميسة المتبسمة في الحباب بزوال الحباب وتحوله، وقد يبكي لتكدر ما في الحباب وتشوهه باختلاط مواد كثيفة به، ولا يرفع رأسه حتى يتفطن لتنـزه الذات - التي هذه التماثيل جلوات أنوارها المتجددة على وجه البحر وخدود الأمواج وعيون القطرات - عن الزوال بزوال مرايا تجلياته، بل ليس في ما

ترى زوال مؤلم ولا فراق أليم.

أما الجمال بمحاسنه وجلواته فثابت بكمال حشمته في تجدد شؤونه وتعدد مراياه.

وأما المرايا والمظاهر فتظهر لوظيفتها وهي راقصة، فإذا تمت الوظيفة استترت وهي ضاحكة.

كذلك أنت، قاعد على ساحل بحر الدنيا تتألم باكياً على أفول ذوي الكمال والجمال والحسن، وعلى زوال ثمرات النعم عند انقضاء أوانها، تزعم بالغفلة أن الجمال ملكُ ذي الجمال والثمرات مال الشجرة، وتغتصبهما منهما عاصفات التصادفات فتلقيهما في ظلمات العدمات. أفلا تعقل ان من نوّر ما تحبه بنور الحسن هو الذي نوّر كل ازاهير بستان الكائنات وشوّق عليها قلوب البلابل العاشقين.

إلى كم تبكي أيها المسكين على زوال ما في يدك من الثمرة! فانظر إلى تواتر نِعَم فالق الحب والنوى في إبقاء شجرة تلك الثمرة.. ثم إلى دائرة انعاماته في أقطار الأرض من أمثال تلك الشجرة إن عقمت.. ثم إلى دائرة تجدد احساناته في تجدد الفصول والسنين أن صارت سنتك شهباء.. ثم إلى دائرة إدامة إحسانه حتى في عالم المثال والبرزخ بأمثال ما شاهدت في عالم الشهادة.. ثم إلى دائرة انعاماته الواسعة الأبدية في عالم الآخرة بأشباه ما استأنست به في حديقة الأرض، ثم.. و.. ثم.. وهكذا! فلا تنظر إلى النعمة بالغفلة عن الإنعام حتى تحتاج إلى التشفي بالبكاء، بل انظر من النعمة

إلى الإنعام ودوامه، ومن الإنعام إلى المنعم ووسعة فيضه وكمال رحمته، فاضحك شاكراً له، وبفضله فافرح.

وحتى متى تدمع عينُك ويجزع قلبُك على فراق جمال زال! فانظر إلى كثرة ووسعة الدوائر المتداخلة المحيطة بما تحبه تنسيك ألم فراقه بإذاقة لذة تجدد أمثاله وترادف أشكاله. وتلك الدوائر المتفاوتة صغراً وكبراً إلى اصغر من خاتمك واكبر من منطقة البروج، وزوالاً وبقاءً إلى آنٍ ودقيقة والى دهر وأبدٍ؛ مظاهر ومرايا ومعاكس ومجاري لجلوات ظلال أنوار جمال ذي الجلال والإكرام الأزلي الأبدي السرمدي القيوم الباقي المقدس عن الحدوث والزوال المنـزه عن التغير والتبدل. فلا تظنن أن ما في المرآة ملك للمرآة، كي لا تبكي على ما في المرآة بموتها وانكسارها، فارفع رأسك عن الدنيا بخفضه إلى منظار قلبك لترى شمس الجمال، فتعلم أن كل ما رأيت وأحببت إنما هو من آياته نِعَمٌ.. ومن آيات جماله أنْ زيّن السماء بمصابيحها والأرض بازاهيرها.. ومن آيات حُسنه أن خلق الإنسان في احسن تقويم.. وان كتب العالم في أبدع ترقيم.. ومن آيات بهائه أن اشرق أرواح الأنبياء ونوّر أسرار الأولياء وزيّن قلوب العارفين بأنوار جماله المجرد. جلّ جلاله". (49)

28 – لمعة في تعريف القرآن

في تعريفه للقرآن الكريم يقول **النورسي** :

---

(49) المثنوي العربي النوري ص 288-289 .

(فإن قلت : القرآن ما هو ؟

قيل لك : هو الترجمة الأزلية لهذه الكائنات، والترجمان الأبدي لألسنتها التالية للآيات التكوينية، ومفسر كتاب العالم .. وكذا هو كشاف لمخفيات كنوز الأسماء المستترة في صحائف السماوات والأرض .. وكذا هو مفتاح لحقائق الشؤون المضمرة في سطور الحادثات .. وكذا هو لسان الغيب في عالم الشهادة .. وكذا هو خزينة المخاطبات الأزلية السبحانية والالتفاتات الأبدية الرحمانية، .. و كذا هو أساس وهندسة وشمس لهذا العالم المعنوي الإسلامي .. وكذا هو خريطةٌ للعالم الأخروي .. وكذا هو القول الشارح والتفسير الواضح، والبرهان القاطع والترجمان الساطع لذات الله وصفاته وأسمائه وشؤونه...وكذا هو مرب للعالم الإنساني، وكالماء والضياء للإنسانية الكبرى التي هي الإسلامية...وكذا هو الحكمة الحقيقية لنوع البشر، وهو المرشد المهدي إلى ما خلق البشر له...وكذا هو للإنسان: كما أنه كتاب شريعة كذلك هو كتاب حكمة، وكما أنه كتاب دعاء وعبودية كذلك هو كتاب أمر ودعوة، وكما أنه كتاب ذكر كذلك هو كتاب فكر، وكما أنه كتاب واحد لكن فيه كتب كثيرة في مقابلة جميع حاجات الإنسان المعنوية، كذلك هو كمنـزل مقدس مشحون بالكتب والرسائل. حتى أنه قد أبرز لمشرب كل واحد من أهل المشارب المختلفة، ولمسلك كل واحد من أهل المسالك المتباينة من الأولياء والصديقين ومن العرفاء

والمحققين رسالة لائقة لمذاق ذلك المشرب وتنويره، ولمساق ذلك المسلك وتصويره حتى كأنه مجموعة رسائل) [50]

29- الكلمة القرآنية

في "الكلمة القرآنية" تطالعنا ينابيع غزيرة من المعاني، وتبهرنا درر خبيئة من الأفكار والحكم، وتسحرنا رياض خضراء، وحدائق غناء من أزاهير الحياة والوجود.

وحين نضع أناملنا على نبض "الكلمة القرآنية" نلمس في صدى نبضها نبضات الكون، ونحس في توهجها توهج الأرض والسماء ونبصر في ضوئها أضواء الشموس والأقمار، ونشاهد في تألقها تألق النجوم والكواكب، وهي تعطينا من هذا كله على قدَر عقولنا، ورهافة حسنا، وعمق نظرتنا، وشموس معرفتنا.

فكلما كنا أقدر على الغوص، واكثر سبرا للأغوار، و أوسع استشرافاً للآفاق والأمداء زادتنا، -الكلمة القرآنية- عطاء وفتحت أمامنا الكثير من مغاليق أسرارها، ومخابئ كنوزها، وما توحيه كلمة -أية كلمة- من معان وأفكار، ومشاعر وأحاسيس في ديوان شاعر، أو في كتاب ناثر، ليست سواء مع ما توحيه الكلمة نفسها عندما ترد في كتاب الله.

---

(50) إشارات الإعجاز في مظان الإيجاز- النورسي- تحقيق إحسان قاسم الصالحي ص 22 .

ففي كتاب الله تأخذ "الكلمة" معاني أعماق وأوسع، وتحتل من النفس الإنسانية مساحات أعظم وأشمل، وذلك لكونها تتحول في "كتاب الله" إلى كيان حي يموج بتلك الحياة المرتبطة بالأزل والأبد، هذا الأبد "غير الزماني" الذي تصب فيه أفكار الماضي والحاضر والمستقبل.

"فالكلمة" تحيا في أجواء الآية، وتتفاعل معها أخذا وعطاء، والآية ترتع في ربيع السورة وتستروح في ظلالها، وتنهل من نبعها، وتقبس من نورها، والسورة تتنزل من روح القرآن ومعانية مضمخة بنوره وعطره، والقرآن كلام الله الحي الذي يستمد وجوده وحياته من وجود "واجب الوجود" ومن حياة "الحي" الذي لا يموت، فلا غَرْوَ - وهذا شأن القرآن - أن يقال: أن القرآن يفسر بعضه بعضا، ويضيء بعضه بعضا.

فكلام القرآن يتمخض في حس "النورسي" وفي وجدانه عن عالم غريب جميل من الصور والأخيلة التي تأخذ طرقها إلى قنوات حسه وشعوره، وسرعان ما يتناولها شعوره المرهف، وذوقه المصفى، وفهمه الشمولي، ليشيد منها صروحا شامخة مبتكرة في أدب القرآن، وأسلوب تعامله مع "الكلمة" ومنهج عرضه وطريقة مخاطبته للإنسان.

ويسرنا أن نعرض هنا بعضا مما كتبه "النورسي" نصا في "الكلمة القرآنية" فيما تناوله من تفسير لبعض من آيات القرآن الكريم.

يقول "النورسي"

حتى أن "العين" التي معناها الواحد: البصر أو المنهل، يطلق على الشمس أيضا، بالرنو إلى أن العالم العلوي ينظر إلى العالم السفلي بها. أو أن ماء الحياة الذي هو الضياء يسيل من ذلك المنبع في الجبل الأبيض المشرف على الكائنات وقس[51] على ذلك.

* * *

أما (صم بكم عمي فهم لا يرجعون) (البقرة:18)

فاعلم: أن الإنسان إذا وقع في مثل هذا البلاء -قد يتسلى ويأمل- ويرجو النجاة من جهات أربع مترتبة:

فأولا: يرجو أن يسمع أصوات تناجى الناس في القرى المجاورة أو من عابري السبيل حتى إذا طلب العون والمدد أَمَدُّوهُ، ولما كانت الليلة ساكنة بكماء استوى هو و "الأصم" فقال: "صم" لقطع هذا الرجاء.

وثانيا: يأمل أنه إن نادى أو استغاث، يُحْتَمَلُ أَنْ يَسْمَعَ أحدٌ فيغيثه، ولما كانت الليلة صماء، كان ذو اللسان والأبكم سواء، فقال: " بُكْمٌ " لإلقامهم الحجر يقطع هذا الرجاء أيضا.

وثالثا: يأمل الخلاص برؤية علامة أو نار أو نير[52]، يشير إلى هدف القصد، ولما كانت الليلة دامسة رمداء عبوسا

(51) الجبل الأبيض يقصد به الشمس التي تبدو كجبل أبيض في وسط السماء.

(52) أي جسم منير أو نير.

عمياء، كان ذو البصر والأعمى واحدا فقال "عمي" لإطفاء هذا الأمل أيضاً.

رابعا: لا يبقى له إلا أن يجتهد في الرجوع، ولما أحاطت به الظلمة، كان كمن دخل في وحل باختياره وامتنع عليه الخروج.

نعم وكم من أمر تذهب إليه باختيارك، ثم يسلب عنك الاختيار في الرجوع عنه. تخليه أنت ولا يخليك هو.

فقال تعالى: "فهم لا يرجعون" لسد هذا الباب عليهم وقطع آخر الحبل الذي يستمسكون به، فسقطعوا في ظلمات اليأس، والتوحش، والسكون والخوف.

* * *

وأما آية: (وينـزل من السماء من جبال فيها من برد)(النور:43)

فاعلم: أن الجمود على الظاهر في هذه الآية مع توقد الاستعارة فيها، جمودُ بارد، وخمود ظاهر إذ كما تتضمن (قوارير من فضة) (الإنسان:16) إستعارة بديعة، كذلك تحتوي: (من جبال فيها من بَرَدٍ) على استعارة بديعة عجيبة مستملحة.

فكما أن كؤوس الجنة لم تكن من الزجاج ولا من الفضة، بل في شفافية الزجاج، وبياض الفضة، ومن حيث أن الزجاجة لا تكون من الفضة لتخالف النوعين، أشار إلى الاستعارة بذكر "من" بالإضافة كذلك (من جبال فيها من

برد) متضمنة لاستعارتين مؤسستين على خيال شعري بالنظر إلى السامع:

وذلك الخيال مبني على ملاحظة المشابهة والمماثلة بين " العالم العلوي " وتشكل " العالم السفلي " وتلك الملاحظة مبنية على تصور المسابقة والرقابة بين الأرض والجو في لبس الصور من يد القدرة.

كأن الأرض لما برزت بجبالها اللابسة للبِيْض من حُلَلِ الثلج والبرد في الشتاء، ومتعمِّمَة بها في الربيع، ثم تزينت في الصيف ببساتينها المتلونة، فأظهرت في نظر الحكمة - بانقلاباتها، (معجزة القدرة الإلهية) قابلها جو السماء محاكيا لها، مسابقاً معها لإظهار(معجزة العظمة الإلهية) فبرز متبرقعاً ومتعمماً بالسحاب المتقطع جبالاً، وأوطاداً وأودية، والمتلونة بألوان مختلفة مصورة لبساتين الأرض، ملوحاً ذلك الجو بأجلى دلائل العظمة وأجلها .

فبناءً على هذه الرؤية والمشابهة والتوهم الخيالي استحسن تشبيه السحاب- ولا سيما الصيفي منه - بالجبال، والسفن والبساتين والأودية وقوافل الإبل - كما تسمع من العرب في كلامهم - فيخيل إلى نظر البلاغة : أن قطعات السحاب الصيفي سيَّارة وسياحة في الجوِّ، وكأن الرعد راعيها وحاديها، كلما هزّ عصا برقه على رؤوسهم في البحر المحيط الهوائي اهتزت تلك القطعات وارتّجت وتراءت جبالاً صادفت الحشر، أو سفنا تلعب بها يد العاصفة، أو بساتين

تُرَجِّحُهَا من تحتها الزلزلة، أو قافلة شردت من هجوم قُطّاع الطرق، ومع ذلك يسيرون ويبحرون بأمر الخالق .

ولما ناداها الرعد - كالبوق المعروف في المعسكرات - (حيَّ على الاجتماع والاتحاد) تسارعوا من منازلهم مهطعين إلى راعيهم فيُحْشرون سحاباً، ثم بعد إيفاء الوظيفة حقها وتلقي الأمر بالاستراحة، يطير كُلٌ إلى وكره .

فبناءً على هذه المناسبة الخيالية، وعلى المجاورة بين السحاب والجبال :

إذ الجبل - بعامل البرودة والرطوبة - يتظاهر ويتشكل السحاب عليه بمقداره، ويلبس لباسه، وعلى وجود الأخوة بينهما ومبادلة الصور واللباس لكليهما، في كثير من مواضع القرآن، ومصافحتهما في منازل التنـزيل، كمحاورتهما وتعانقهما في كثير من سطور صحيفة الأرض في كتاب العالم، فترى السحاب متوضعاً على الجبل، ويصير الجبل كأنه مرسى سفن السحاب ترسو عليه أو مجلس تتشاور عليه أو وَكْرُ تطير إليه استحقا بحكم المجاورة - في نظر البلاغة أن يتبادلا ويستعيرا لوازمهما فيعبر عن " السحاب " بـ " الجبل " مع تناسي التشبيه .

فإذا عرفت ما سمعت من المناسبات،

و (ينـزل من السماء) أي من جهة السماء .

(من جبال فيها) أي من سحاب كالجبال .

(من برد) أي من مطر كالبَرَد في لونه و رطوبته وبرودته .[53]

30- فلسفة الصلاة والزمن

الزمن نفسه، أسحاره وأصباحه، وضحاه وظهيرته، وأصائله وأماسيه، عشاؤه وليله، هذه الأوقات رموز ومعان لكل مرحلة من مراحل عمر الإنسان، منذ أن تدب الحياة فيه وهو في رحم الأم وحتى يعود في خاتمة المطاف إلى رحم الأرض أمه الثانية الأخرى .. فهذه الأوقات هي أصداء الزمن الذي يصرخ بالإنسان منبهاً وموقظاً، وهي همساته في أذن الروح كلما انتابها كسل أو فتور، ولذلك فرض الله سبحانه وتعالى الصلوات - التي تمثل قمة الصحو و اليقظة في هذه الأوقات : (فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون وله الحمد في السماوات والأرض وعشياً وحين تظهرون) (الروم:17) .

فعالمنا في إطار الأكوان ساعة إلهية كبرى، عقرب ثوانيها الليل والنهار، وضابط دقائقها السنون والأعوام، وحاسب ساعاتها القرون والأزمان، وكل ميل أو عقرب فيها - كساعة الإنسان اليدوية - يناظر الآخر ويرتبط به، ويتحرك بحركته، ويأخذ حكمه .

---

(53) أنظر إشارات الأعجاز في مظان الإيجاز ص113 وما بعدها . وانظر كذلك / سعيد النورسي رجل الإيمان ص 143 ، 144 ، 145 ، 146 ، 147.

والدين لكي يربطنا إلى هذه الساعة الكبرى، ويلفت انتباهنا إليها، ويجعلنا متيقظين لحركتها لا نغفل ولا نسهو، فرض لنا ضمن كُلِّ وقت من أوقاتها، وموسم من مواسمها نوعاً من أنواع العبادات، وشكلاً من أشكال التقرب إلى الله، فالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها الكثير من فروض الطاعات ومندوبات الأعمال لها- ضمن هذه الساعة الكبرى - وقتها المعلوم وزمنها المخصوص .

يقول " النورسي " في حكمة الصلاة في أوقاتها المعلومة : تسألني - أيها الأخ - عن حكمة تخصيص هذه الأوقات الخمسة المعينة بالصلاة، وسأشير إلى حكمة واحدة فقط من بين حكمها الكثيرة:

1- وقت الفجر إلى طلوع الشمس :

يشبه هذا الوقت في نداوته ورقة أنسامه، وعطر أنفاسه، باكورة الربيع وخضرة أيامه، وتفتح أزاهيره وأوراده، كما أن هطول نور الفجر الهادئ الأنوس على الأرض يشير إلى أول نـزول الروح الإنساني في رحم الأم، بداية خلقه، ولأنه الخيط الأول من نهار جديد فهو يثير في النفس معنى اللحظات الأولى من اليوم الأول من الأيام الستة في خلق السماوات والأرض.

كل هذه الخواطر والأفكار ينبغي أن تنبعث في نفس المؤمن مرة واحدة وهو يستقبل فجر يوم جديد، فيقوم إلى الصلاة متضرعاً طارقاً باستحياء باب رحمة القدير ذي الجلال ومتمرغاً على أعتاب الرحيم ذي الجمال، عارضاً افتقاره عليه طالباً العون والتوفيق منه سبحانه، فهذه الصلاة في باكورة يوم المؤمن الجديد هي ركيزة ثابتة يرتكز إليها، وسند يستند إليه، و مشد يشد ظهره ليقوى على تحمل ما يواجهه به يومه من أثقال الحياة، ومتاعب العيش في غضون النهار . أليس - أيها الأخ - في اختيار هذه الوقت للصلاة حكمة عظيمة ما بعدها حكمة .. ؟ !

2-وقت الظهر :

الظهر صيف يومه، وشباب نهاره، وعنفوان استوائه، وهو يومئ بشدة ضيائه، ووضوح أنواره، إلى ما في الروح الإنساني النازل إلى الدنيا من أنوار إلهية بِكْرٍ لم تتلوث بعد بدخان الآثام، ولا ظلمات الذنوب ومع بلوغ النهار ذروته وميلانه قليلاً إلى الزوال، تتكامل أو تكاد أعمال الإنسان اليومية، حيث يشعر بعدها بحاجته إلى فترة استرخاء نفسي، ويحس بحاجة الروح اللاهفة إلى التنفس والاسترواح، وافتقارها بعد هذا الانغمار بالشؤون الدنيوية الفانية و ما تورثه - أحياناً - من غفلة واضطراب وحيرة - إلى الانفلات من هذا كله، والتوجه بإشراقها إلى ينابيع الخلود وعوالم البقاء .

فخلاص روح الإنسان من تلك الأثقال، وانسلالها من بين سحب الغفلة والحيرة، وخروجها من تحت زبد التوافه والأباطيل، في هذا الوقت من النهار، لا يتم إلا بالتجاء الإنسان وهروبه إلى باب الحي القيوم الباقي بتضرع الملتاع وتوسل الملهوف، فيقف بين يدي الله سبحانه وتعالى في صلاة الظهر مكتوف اليدين، واجف القلب، شاكراً حامداً لآلائه وأنعمه، متبرئاً من حوله وقوته، مستعيناً به وحده، مُظْهِراً - بركوعه - عجزه إزاء جلاله وكبريائه وعظمته، مُعْلِنَاً - بسجوده ذلّه وخضوعه تجاه كماله الذي لا يزول، ومسبحاً بحمد جماله الذي لا مثيل له ولا شبيه .

فما أشد حاجة الإنسان في هذا الوقت إلى هذه الصلاة التي تنعش روحه، وتذكر قلبه، وتوقظ وجدانه، أفلا ترى معي - يا أخي - أن الصلاة هنا ضرورة من أعظم الضرورات في الإبقاء على يقظة الإيمان وحيويته في النفوس؟

3-وقت العصر :

ويأتي العصر منساباً بهدواته الهادئة، ولحظات سكينته الحالمة، طاوياً أساهُ العِذْبُ سرّ الآلام الإنسانية الكبرى، وماسحاً بيده أوجاع القلب البشري المتعب في حومة الكفاح - من أجل بقائه نقياً طاهراً - ضد قوى الشرّ في خفايا الضمير، وخبايا الوجدان، هذا الكفاح المرير الذي لا يعلم سره إلا الله سبحانه وتعالى .

ووقت العصر هو خريف اليوم المثقل بثمار الأعمال، جيدها ورديئها وكهولة النهار المدلفة بهدوء إلى شتاء العمر، وهو يشير - بانحدار شمسه نحو المغيب - إلى الحزن الوقور الآتي مع شيخوخة الإنسان والقادم في صحبة الجسد المهزوز العاجز الضعيف الذي يقول لسان حاله : انظروا - أيها السادة - كُلَّ شيء يحول ويزول، ويمضي إلى عوالم الغيب، وينحدر إلى ما وراء الشهود . . .

وهنا ينتفض الروح الرافض المتمرد على الفناء، الساعي إلى الخلود، التواق إلى الأبدية، ولأنه مخلوق لهما فهو يعشق الثبات والبقاء، ويتألم من الزوال والفناء، فيتحرك في المؤمن مهيباً به أن يقوم إلى ضفاف الأبدية، وبحار السرمدية . ويلتمس البقاء من الباقي، ويحتمي من الفناء بالحي القيوم الذي يقول: (كل من عليها فانٍ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام) (الرحمن:27) فيؤدي صلاته مستحضراً في ذهنه هذه المعاني التي تنسج لروحه في كل ركعة وسجدة ثوب بقائه ورداء خلوده . . .

ألا ترى - أيها الأخ الحبيب - بعد هذا الذي ذكرناه، كم هي صلاة العصر مناسبة لوقتها، وكم هي ضرورية في أوانها .. ؟ !

4-وقت المغرب

الشمس الصفراء الشاحبة تنحدر على مهل نحو المغيب، مخلفة وراءها ظلالاً باهتة، وأشباحاً ناحلة من صور الأشياء والمرئيات .

كما تغيب الشمس - هذا الجرم السماوي الكبير الممتلئ بالحيوية والنشاط - يغيب الإنسان- هذا الجرم الأرضي العظيم - كذلك عندما يحين أجله، وتدق ساعة مغيبه، وهو لا يترك وراءه سوى أطياف ذكريات، وبقايا صور في ذاكرة أهله ومعارفه .

ويغرق الليل الدنيا، ويغمرها بالظلام كل مساء وكأنه - وهو الليل الأصغر - يريد أن يذكرها فلا تنسى أبداً ذلك الليل الأكبر القادم في يوم ما ليَلُفَّها في يَمِّهِ ويطويها بما فيها ومن فيها بلجته . . .

ويهمس المساء ناصحاً في أذن الإنسان :

أترى - أيها الإنسان - كيف يغرق غائصاً في ظلمة الليل كل شيء تحبه وتتعلق به، ألا تراه كيف ينفلت من بين يديك، وينسل من بين ناظريك، منطوياً تحت جناحه، وضائعاً في ثنايا موجه .. ؟

فلا تغتر بما تجد، ولا تفرح بما تكسب، فلا دوام لمطلوبات الدنيا، ولا بقاء لمحبوبات الحياة، فإياك والتعلق بما يمكن أن تفارقه أو يفارقك، وإياك والتشبث بالزائلات الفانيات من الأشياء .. بل تعلّقْ بالباقي تبقَ .. وتشبّثْ بالخالد تخلدْ .. وأحببَ الحيَّ القيومَ تحيا .. وتشوقْ إلى الرحمن

الرحيم تُرحَمْ وفي الظلمات استقبل قبلتك .. وأدِّ صلاتك تتنور وتتضوأ مهما اشتد ظلام الدنيا حولك أو اشتدت عَتَمَةٌ قبرك .. هذا هو معنى الصلاة ومغزاها في مستهل هذا الانقلاب الزماني الكبير، وفي أوان هذا الإدلاج من عالم النور إلى عالم الظلام .. فما أعظم - يا أخي حكمة فرض الصلاة في هذا الوقت، وما أجمل ما تؤديه للإنسان في هذا الأوان من أمن وسكينة واطمئنان . . .

5- وقت العشاء :

ويأتي العشاء هذا الشتاء الليلي الذي يتغشى بكفنه الأسود وجه الأرض الميتة معلناً بذلك عن موت يوم آخر من أيام الدنيا، ومضيه مثقلاً بأعمال البشر بكل خيرها شرِّها إلى حافظه الزمن، وعقله الدقيق الذي لا يفوته تسجيل كل صغيرة وكبيرة وحفظها إلى اليوم الموعود .. هكذا تمضي صحيفة النهار البيضاء تجرر بقايا نورها، وتختفي وراء أفق السماء، وتُنْشَرُ صحيفة الليل السوداء مذكرة الإنسان -الذي كثيرا ما تنتابه الغفلة- بقدرة "مقلب الليل والنهار" و"مسخر الشمس والقمر" كما هو شأنه - جل شانه - عندما يطوي بساط الربيع الأخضر من فوق سطح الأرض ويستبدل به ذلك البساط البارد المتثلج الأبيض أيام الشتاء المقرور.

فالجمع - في الخلق - بين المتناقضات، بياض النهار وسواد الليل، حر الصيف وقر الشتاء، حياة المخلوقات

وموتها، من عمل واحد أحد، فرد صمد لا حَدَّ لقدرته ولانهاية لإبداعات صنعته.

وسجو الليل وصمت سكينته، وهدوات أنفاسه، يقربنا من حافات ذلك العالم الصامت الذي يثوي الأموات في صمته، ويجعلنا نسمع طرقات البلى، ومعاول الفناء على أسوار الدنيا وجدران العالم، حتى ليدوي في أسماعنا طنين الهلاك، ونحس في أرواحنا عويل الدمار وأنين الانهيار، ونُصْغي بقلوب واجفة إلى ذلك النداء الأزلي: (لمن الملك اليوم؟ لله الواحد القهار) (غافر:16) المالك الحقيقي المتصرف الحقيقي بهذا الكون، بل المعبود الحقيقي، والمحبوب الحقيقي فيه الذي يقلب الليل والنهار، والشتاء والصيف والدنيا والآخرة، كما يقلب أي إنسان - ولله المثل الأعلى - صفحات كتابه، أو يطوي سجلات كتبه، فيتجلّى عجزنا، ويبين فقرنا، وتنكشف حاجتنا إلى من بيده إنقاذنا من ظلمات المستقبل، وليل العالم الكبير، القادم قدوم كل ليل في آخِرَةِ النهار، فيفزع المؤمن في هذا الوقت إلى الصلاة ويردد مع سيدنا إبراهيم عليه السلام (لا أحب الآفلين) (الأنعام:76)، ويتقرب بصلاته إلى باب من هو المعبود الذي كان وما يزال، ومن هو المحبوب في كل وقت وأوان، مناجياً الباقي السرمدي بعد خَلْعِهِ للدنيا الفانية، وطرحه لهذا العالم المائل للانهيار في كل لحظة وراء ظهره خارجاً بذلك من ظلمة دنياه، من خلال صحبة خاطفة، ومناجاة موقتة، مقتبسا النور الذي يضئ حياته، وملتمساً

المرهم الذي يضمد به جراح قلبه النازفة على من زال من أحبائه وفراق من فارق من إخوانه ومعارفه، ساكبا عبرات قلبه، ولوعات صدره على عتبة باب تلك الرحمة، قائما بوظيفة العبودية في خاتمة يومه قبل أن يخلد إلى النوم، موته الأصغر الذي يجر به كل ليلة، والذي لا يدري ما سيؤول أمره فيه عندما يغمض عينيه، ويعقد الكرى أجفانه .. فتتهاوى عند أبواب النفس كل محبوباته الدنيوية، وتذوب في حرارة صلاته كل أهوائه ورغائبه الزائلة الفانية، ويتلاشى خوفه ويزول ذله، ويتحول الصغار في روحه إزاء السادة الدنيويين إلى عز شامخ، وإباء رفيع، لأنه واقف أمام من هو القديم الكريم، وماثل في حضرة من هو الحفيظ الرحيم.

فيفتتح صلاته بالثناء على رب العالمين الكريم الرحيم، الكامل المطلق الكمال، الغني المطلق الغني، فيرقى إلى مقام الضيف المكرم في هذا الكون، والى مقام الموظف المرموق فيه، رغم ضعفه وفقره وعجزه، لأنه قد سما إلى مرتبة الخطاب: (إياك نعبد) فينتسب بذلك لمالك يوم الدين، ولسلطان الأزل والأبد. فيقدم بين يدي الله بقوله: (إياك نعبد) و (إياك نستعين) عبادات واستعانات الجماعة الكبرى، والمجتمع الأعظم لجميع المخلوقات، طالبا له ولهم الهداية إلى الصراط المستقيم الذي هو طريقه المنور الموصل إلى السعادة الأبدية بقوله: (اهدنا الصراط المستقيم) ويتفكر ويتأمل في كبريائه وعظمته سبحانه وتعالى الذي ما هذه

الشموس المستنيرة، وما هذه النجوم المتلألئة إلا جنود مجندة لأمره جل وعلا، وإن كل واحد منها ما هو إلا مصباح في دار ضيافته هذه، وخادم له مطيع لأمره، فيكبر عندئذ قائلا: (الله أكبر) ثم يهوى راكعاً.

وإذا كانت الأكوان والعوالم، وإذا كانت السماوات والأرضين، وما فيهن وَمَنْ فيهن ما فتئوا ساجدين سجدتهم الكبرى، مسبحين تسبيحاتهم العظمى، فما أجمل أن يأخذ الإنسان أيضا مكانه في صف الساجدين على سجادة الغروب المبسوطة بين أقطار السماوات والأرض، مكبراً مع تكبيرة الوجود لينال أجر صلاة الجماعة الكونية العظمى، ويحصل على شرف العبودية الممتثلة لأوامر مولاها.

فصلاة "العشاء" بهذا المعنى، وبهذا الفهم الشامل هي معراج المؤمن، والتي يسمو بها، ويشاهد من عليائها آيات الله وأنعمه وآلاءه.

تلك - يا أخي - هي حكمة الصلاة في هذه الأوقات التي هي منعطفات يومية، وانقلابات زمانية، لكل وقت وزمان منها نوع من أنواع فيوضات الرحمة الإلهية، ولون من ألوان تجليات الأسماء الحسنى. فيبادر إليها المؤمن بصلاته حتى لا تخطئه بركاتها، ولا تفوته رحماتها.[54]

31- الإنسان ثمرة الأزمان

---

(54) الكلمات – النورسي ص 38- 46 أنظر "رجل الإيمان" الصفحات 106-113.

في البذرة ينطوي ماضي الشجرة ومستقبلها. وعندما تورق شجرة ما وتتفتح أزاهيرها، وتنضج بعد ذلك ثمارها، فأن هذه الثمار ينبغي أن تتقدم بشكرها للبذرة نفسها، وللجذر الممتد عميقا في باطن الأرض، وللجذع الذي حمل الأغصان، ومر من خلاله الماء والغذاء من باطن الأرض لكل ورقة وزهرة وثمرة.

أما إذا ركب هذه الثمار الغرور، وأصابها العجب، وتعالت شامخة على أغصانها وتشبثت بحاضرها، وتنكرت لماضيها، وتناست أصلها، وظنت - في غمرة خيلائها - أنها في غنى عن غذاء جذورها وخمائر جذعها فأنها تكون بذلك قد خانت نفسها، واختَرَمَتْ حياتها، وأوردت ذاتها موارد الموت والهلاك.

الإنسان أيضا هو أنفس ثمار الوجود، وأجمل أزهار الكون، وأكثر أشجار الأرض طيبة، ورسوخا وجمالا وظلا، تخضر الأرض باخضرار نفسه، ويخضل العالم باخضلال روحه، ويندى الوجود بأنداء قلبه، وتتفيأ الشمس نفسها بوارف ظله.

هذا هو الإنسان الكامل العارف الجامع - في لمحة - بين ماضيه وحاضره ومستقبله، والنافذ ببصيرته إلى جذوره وأصوله الموغلة في القدم .. والعالم بأنه بالمشيئة قدم العالم، وبالقدرة نـزل الأرض، ومن الحي أستمد الحياة، ومن الخالق أستوهب خلقه، وقام يدب على الأرض بشرا سويا، وهو

بالبصيرة نفسها يطل على مشارف الأبد، ويرنو إلى ضفاف الخلود، ويهفو باشتياق إلى عالم البقاء، وهو على ثقة ويقين بأنه بالباقي سيبقى، وبالخالد سيخلد، ومن الأبدي سينال الأبد، ويحصل على الخلود.

فهذه النظرة الشمولية الجامعة -عند الإنسان المؤمن- هي التي تعطي سلوكيته في التعامل مع الآخرين روحاً نابضاً بالحياة. وحساً مرهفاً لا تحكمه ضرورات الأزمنة والأمكنة، ولا تفرضه المصالح والمنافع الضيقة المحدودة.

فهو حين يصدق مثلا لا يصدق بدافع الضرورة، ولكنه يصدق لأنه يجد في الصدق جمالا تهفو إليه النفوس، ويسعى إليه الوجدان، ويطلبه الصدق الأعظم الذي به قام الوجود، وعليه رست السماوات والأرض، وهو حين يحب، لا يحب لغرض، ولا يصطفي لمنفعة، ولكنه يحب لأن الحب هو الدم الذي يغذو عروق العوالم والأكوان، ويمد قلب الوجود بدفقات الحياة، ويمنح الزهرة سر الجمال، والفراشة سحر الألوان، والبلبل عذوبة التغريد، ويهدي القمر نوره الأنوس، والشفق الأحمر حمرته، الهادئة، والفجر أنفاسه الندية، والجدول خريره الحزين، والقلب الإنساني جمال الشجن، والروح أسى الحنين إلى عالم الحب والجمال والخلود في رحاب الآخرة ومنازل الجنة. والى أمثال هذه المعاني يشير "النورسي" قائلا:

(أما الإنسان المنحصر في حلقة واحدة من حلقات الزمن، وفي دائرة واحدة من دوائره وهي دائرة الحاضر، المنقطع عن الماضي والمبتوت الصلة بالمستقبل، فسوف تضيق نفسه بضيق زمانه، وتتحدد آفاق نظرته، ويدخل مرغما في عنق الزجاجة الزمنية الضيقة الخانقة التي تسد منافذ المروءات في نفسه، وتوصد أبواب المكرمات في وجدانه، وتتحول سجاياه الإنسانية الموروثة والتي لا تعرف الحدود إلى سجايا نفعية، وأخلاق انتهازية متلونة، يعامل من خلالها الناس الذين يعاصرهم ويعايشهم وكأنهم كائنات زمانية محدودة بحدود هذا الحاضر الذي يعايشونه، وكأنه لا يعرف من أي ما ض تليد مفعم بالمكرمات قد أتوا، ولا إلى أي مستقبل سيلتقيهم في رحابه بعد انقضاء هذا الزمن الدنيوي مهما بدا طويلا في ظاهر أمره وعندما ينظر الإنسان المحصور في دائرة الحاضر هذه النظرة الكليلة القاصرة تتحول المحبة لديه والتي هي منبع كل الفضائل البشرية من كونها عنصراً من عناصر امتداد الإنسان في الأشياء من حوله ونفاذه في الكائنات الحية وخلوده في البشرية التي سيلتقيها على أبواب الآخرة إلى مجرد عاطفة ضيقة يابسة توريها المصلحة وتلهبها المنفعة فتفقد بذلك حرارة الروح ونبض الوجدان ودفء القلب الذي يعطي عطاء من لا يريد جزاءً ولا شكوراً .

وحتى محبته لأبيه أو زوجته أو ولده أو أمه، تغدو محبة يكتنفها الجفاف، ويعتورها اليبس، لأنها لا ترتوي من ذلك الحنان الأصيل العميق الذي به ترقى المحبة إلى مرتبة الخلود، وترتفع إلى قمة الأبد، ولا يستطيع الموت نفسه أن ينال منها، لأن المحبَّ قد أعطى من قلبه للخلود، ووهب للبقاء، ولم يعط من أجل لحظة عابرة، أو لمحة خاطفة، لذا كان المتحابون في الله – كما ورد الحديث الشريف – على منابر من نور يغبطهم عليها الأنبياء والصديقون والشهداء .

فالماضي والمستقبل هما عَصَوَا الإنسان وعكازتاه اللتان يتوكأ عليهما في مسيره عبر شعاب الزمن ومنعطفات التاريخ، فعلى قدر استيعابه لماضيه وجذوره وأصوله وخلفيات تاريخه المتصلة بما (قبل الزمن) والمرتبطة بمشيئة الغيب وإرادة القدر الإلهي .. وعلى قدر وعيه وقدرته على التأمل المستقبلي والاستحضار الدائم للحظات المآل والمصير والنفاذ ما وراء (الزمن) إلى حيث (الأبد) الذي سترسو سفينة الإنسان على ضفافه في خاتمة رحلته .

أقول : على قدر هذا الاستيعاب للماضي، والوعي للمستقبل والمصير، تكتسب مسيرة الإنسان في هذا العالم خَطوَها الرصين، ومسيرها الهادئ الموزون على الصراط الذي يجنب الإنسان الانحراف والضياع والشتات، ويمنحه النور الذي يبدد ضبابية الفهم وعشوائية التصرف والسلوك .

أما الإنسان الذي يحدد نفسه بـ(الحاضر)، وينغمس في لحظاته وساعاته، ويغرق في أمواجه ولجه، قاطعاً بذلك صلته بجذور ماضيه، واضعاً أصابعه في أذنيه حتى لا يسمع نداء المستقبل، وهتاف الآتي، ومستغشياً ثيابه حتى لا يبصر لمعات الخلود، وبوارق الأبد، فهو إنسان يثير الإشفاق لأنه قد اختار – دن مبرر – الكفر، وحكم على نفسه بالعذاب الأبدي في سجن الآخرة الرهيب)[55] .

32 – نماذج أدبية من " النورسي "

أ- لا تُشَتِّتْ جنود صبرك :

ااعلم ! أيها المصاب ببليةٍ دامت من مدة!. لا توزّع من جنود صبرك وقوته، في مقابلة ما مضى إلى يومك هذا، بل إلى ساعتك هذه ؛ إذ التحقتْ تلك الأيام الأليمة الخالية إلى صف جنودك بانقلابها لذائذ معنوية وحسنات أخروية. وكذا لا توزع من صبرك في مقابلة ما يأتي بعد يومك هذا، ، بل ساعتك هذه. اذ هو عدم ومعدوم وفي يد المشيئة. فاجمِع جميعَ قوة صبرك وجنودِه على هذا اليوم، وفي هذه الساعةِ، مع تقوّي قوتك المعنوية بالتحاق جنود البلايا الأعداء إلى جنودك بانقلابها أحباباً ممدةً، ،مع الاستمداد من التوكل على المالك الكريم الرحيم الحكيم في مقابلة ما يأتي. فإذا فعلت هكذا، يكفي اضعفُ صبرك لأعظم مصيبتك ..)[56] .

---

(55) المصدر نفسه الصفحات 114 ، 115 ، 116 ، 117 .

(56) المثنوي العربي النوري – النورسي ص 349 وانظر المختارات ص 82 - 83

ب – مَنْ أنتَ ؟ !

"اعلم! انك صنعة شعورية بحكمة، حتى كأنك بوضوح الدلالة على صفات الصانع؛ مُجَسَّم الحكمة النقاشة، ومتجسَّدُ العلم المختار، ومُنجَمَدُ القدرة البصيرة بما يليق بك، وثمرة الرحمة السميعة لنداء حاجاتك، ومتصلّب الفعل المريد لما يريده استعدادك، ومتكاثف الإنعام العليم بمطالبك، وصورة القدر المرسِّمِ المهندس الخبير بما يناسب بناءك.."[57].

ج- قيودك :

"اعلم! انك مقيد بالتعين، في مقيد بالبدن، بمقيد بالعمر، محدود الحياة في محدود البقاء بمحدود الاقتدار. فحينئذ لابد أن لا تصرف هذا العمر القصير القليل الفاني للفاني حتى يفنى، بل للباقي ليبقى". [58] .

د – القطرات والبحور :

"اعلم! أيها الإنسان أمامك مسائل عظيمة هائلة، تجُبر كل ذي شعور على الاهتمام بها!..

منها "الموت" الذي هو فراقك عن كل محبوباتك من الدنيا وما فيها.

ومنها "السفر" إلى ابد الآباد في أهوال دهاشة.

ومنها "عجزك" الغير المعدود في "فقرك" الغير المحدود في سفرك الغير المحصور في عمر معدودٍ محدود، وهكذا.

---

57 المثنوي العربي النوري – النورسي ص299

(58) المصدر نفسه ص 300

فما بالك تناسيتَ وتعاميتَ عنها -كطير الإبل - أي "النعامة" يخفي رأسه في الرمل، ويغمض عينه لئلا يراه الصياد.. إلى كم تهتم بالقطرات الزائلة، ولا تبالي بالبحور الدهاشة!!." (59) .

33 – الخلاصة والخاتمة . . !

كثيرُ هم أولئك الذين يعرفون الاستاذ " النورسي " رائداً كبيراً من روّاد العمل الإسلامي في تركيا الحديثة 1293 – 1379هـ، إلا أن أعماله الأدبية ما زالت مجهولة من قبل أغلب الأدباء والمثقفين والنقَّاد العرب، فشهرته كرائد إسلامي طاغية على شهرته كأديب على الرغم من أن معظم نتاجاته في الحقل الإيماني ذات نَفَسٍ أدبي يبدو واضحاً للقارئ المتمعّن .

والمنطلق الذي ينطلق منه " النورسي " في أعماله الإيمانية والأدبية منطلق واحد، وهو "الإنسان" هذا المخلوق العجيب الذي خلقه الله تعالى لنفسه، وأراده مرآة يشاهد فيها عظمة قدرته، ودقة صنعته، وسخَّر له الكون، ومنَحَهُ من مطلق صفاته وأسمائه الحسنى نسبيات محدودة من الوجود والحياة والقدرة والعلم والإرادة لكي يقيس ما عنده من نسبيات هذه الصفات على ما عند الله تعالى من مطلقاتها. فيعرف ويشكر ويعبد كما يقول " النورسي "

---

(2) المصدر نفسه ص 352

فتعريفه بكرامته ونفاسة وجوده، وعظمة رسالته في الحياة واستثارة قواه الداخلية، وطاقاته الكامنة، وأيقاظ لطائفة ووجدانياته ولَمُّ شَتَاتِهِ، وتجميع ما تفرَّق من قواه النفسية ثم حشدها ورَصُّهَا في صفٍّ واحد قوي متماسك لمواجهة هجمات العدم الذي يسعى لتدمير روحه، وخنق أشواقه وتطلعاته الفطرية إلى البقاء والخلود، هو مجمل أفكار "النورسي" الأدبية والدينية.

ولعل كتابه الأدبي العظيم "المثنوي العري النوري" هو خير ما يفصح عن هذه المقاصد والأهداف التي أعتمدها في كل كتاباته.

فهذا الكتاب دُرَّةٌ من دُرَرِ أدبه، وتحفة فنية من تحف فكره وقلبه، وهو لا يقل بأي حال من الأحوال –إن لم يرجح في جوانب منه على "مثنوي الرومي" ولكن لسوء حظ هذا الكتاب أنه لم يصبح معروفاً لدى قراء العربية إلا قبل سنين عديدة، حيث أهتمَّ به وحققه الأستاذ إحسان قاسم الصالحي، غير أنه لم يزل ينتظر الناقد الذي يقدمه إلى قراء العربية ككتاب فذ في " أدب الإيمان " وبحاجة كذلك إلى المترجم الحاذق الذي ينكب على ترجمته إلى إحدى اللغات العالمية، وهو لو عُرِفَ بشكل جيد من قبل نُقَّاد الغرب لعرَّفوا به، ولأشادوا به، ولشق طريقه ليحتل مكانة مرموقة إلى جانب أعظم الأعمال الأدبية العالمية.

لأن اهتمامات هذا الكتاب منصبة بالأساس على أوجاع القلب البشري، وآلام الروح الإنساني، وإشفاقهما من الفناء والعدم. فهو مكرس لمساعدة الإنسان على خلاصه من براثن العدم والهلاك الأبدي، وإنقاذه من هجمات الفناء، والأخذ بيده إلى أبواب البقاء والخلود، وهذا هو ما يتوق إليه كل إنسان ويتطلع إليه حيثما كان في هذا العالم، وهذا هو ما سيجعله يتبوأ –في المستقبل القريب- مكانة عالية إلى جانب الأعمال الأدبية الخالدة.

و" المثنوي " ليس مجرد جزالة في اللفظ، ولا براعة في الكلام، بل هو جزالة في المعنى يبهر الذهن، وجلال في الفكر تنحنى له الهامات احتراما، وشرف في المقاصد والغايات تنجذب إليه النفوس العفيفة والشريفة، فقد أوتي صاحب " المثنوي " فضيلة الإتيان بكل جليل وجميل من الأفكار، وبكل شريف وطاهر من الأحاسيس والمشاعر، ولم يزل غراسه قادرا على أن يَزْكُو ويَعْلُو ويعطي ثماره في تربة الأذهان المتلقية، بل هو عنصر فكري مُشِعٌّ يؤثر في العقول، ويستولدها في كل مرةٍ أنسالاً جديدة مبتكرة من الأفكار، تزيد العقول اتساعاً، وتشحذ قدراتها على التفكر والتأمل في عوالم الغيب والشهادة، وعوالم النفس الإنسانية والكونية على حد سواء.

* * *

والمفكرون من ذوي العقول الخصبة، والأرواح الكبيرة، يَشْكُلُ عليهم أمر أنفسهم أحياناً، فيخالون أنفسهم طوراً في أعلى قمة من قمم العطاء، وآنا في أسفل دركات العجز والقنوط، وهذا الشعور كان ينتاب "النورسي" بين الفينة والفينة وإذ لم يكن لديه ممتلكات دنيوية تشغله عن رسالته، فهو كذلك ليس له ممتلكات فكرية يباهي بها وينسبها لنفسه، لأنه يعزي أعماله الأدبية والإيمانية إلى الهامات القرآن، وأنه ليس أكثر من أداة مسخرة قد سخَّره القدر لخدمة المقاصد الإيمانية والقرآنية، وأنه أعجز من أن يأتي بما أتى به لولا التأييد الرباني، والإلهام القرآني، حتى لكأن حشودا من الإلهامات الربانية تقطن عقله ووجدانه، وتوجُّه رغائبه، وتمْلي عليه خواطره وأفكاره وكثيراً ما ينتابه التوجس والقلق إذا ما اضطره ظرف ما أن يكون خارج عالمه الروحي، فهو لا يستطيع ولا يقوى على مغادرته إلى أي مكان آخر.

ولكي نفهم عظمة " النورسي " مع التواضع الجم، والإحساس بالعجز والافتقار، يحسن أن نقرأ الآتي بأمعان وتأمل حيث يقول :

(يا ناظر! أظنني أحفر بآثاري المشوّشة عن أمرٍ عظيم بنوع اضطرارٍ مني. فيا ليت شعري هل كَشَفتُ.. أو سينكشفُ.. أو أنا وسيلة لتسهيل الطريق لكشّافه الآتي.)[60]

---

(60)المثنوي العري النوري – النورسي ص239 وانظر المختارات ص 110.

فهو يحفر بسنان قلمه في أغوار " النفس" وفي أطباق "ا لأكوان " مفتشاً عن ذلك الأمر الخفي المكنون مدفوعاً إلى ذلك بقوة قدرية قاهرة يجد نفسه ملزما بطاعتها والاستجابة لها.

وهذا الأمر العظيم إنما هو الكشف للأجيال عن السلك النوراني الممتد بين روح الإنسان وروح الله، وبين أشواق القلب البشري والحب الإلهي العظيم للإنسان اعظم مخلوقاته، وأنقاهم مرآة لجلوات أسمائه الحسنى.

ولكنه - أي " النورسي " - مشفق من أنه لم يستطع إنجاز هذه المهمة على الوجه المطلوب، غير أنه لا يتوقف لحظة عن البحث والتنقيب لعله إن فاته أن يكون ذلك الكشاف الرائد، فلا أقل من أن يكون بآثاره الفكرية، وسيلة ممهدة في الطريق نفسها التي مضى هو فيها للآتين من بعده، ليحملوا على عواتقهم المهمة نفسها لعلهم ينالون شرف هذا الكشف في الآتي من الأزمان.

* * *

وهذا الكشف العلوي لأعظم حقائق الوجود، والإمساك بطرف السلك النوراني بين الخالق والمخلوق، والعبد والمعبود، احتاج إلى قوى روحية محلقة، وعقل مُجَنَّح قادر على ملاحقة الروح في جولانه بمملكة المعاني المجردة، على الرغم من الانسحاق الذي أراد أعداء "النورسي" إلحاقه بروحه تحت شتى صنوف الاضطهاد والسجن والنفي

والتشريد، فباءت محاولاتهم في كسر أجنحة روحه بالفشل، وإرهاق عقله، وإنهاك فكره بالإخفاق، فاستطاع متجاوزا جميع هذه العقبات والمعوقات أن يمنح تلامذته وقراءه بصائر نافذة في ظلمات الطبيعة التي رُشِحَتْ من قبل الكثير من مثقفي عصره كبديل عن ربوبية الرب، وخلاقية الخالق.

فقارئ "النورسي" يجد نفسه بغتة في صميم أحواله الروحية ممسكاً بجوهرة الحياة الأبدية، التواق لبلوغها عند مغادرته لهذه الدنيا.

ولكي نلمس عن كثب ما عاناه " النورسي " من آلام وأوجاع وعذابات لنقرأ ما كتبه هو عن نفسه حيث يقول:

(لم أذق طوال عمري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا، قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنـزانات الأسر، أو سجون الوطن، ومحاكم البلاد، لم يبق صنف من الآلام والمصاعب لم أتجرعه، عوملت معاملة المجرمين في المحاكم العسكرية العرفية، ونفيت وغُرِبْتُ في أرجاء البلاد كالمشردين، وحُرِمْتُ من مخالطة الناس شهوراً في زنـزانات البلاد، ودسَّ لي السم مراراً، وتعرَّضت لإهانات متنوعة ومرَّت عليَّ أوقاتٌ رجّحت فيها الموت على الحياة ألف ضعف ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي فربما كان سعيد اليوم تراباً تحت تراب) (61)

---

(61) سيرة ذاتية – النورسي ص 457.

ويبقى "النورسي" شخصية عالية غير عادية، تند عن الفهم إذا حاولنا فهمه ضمن الموازين التي يوزن بها الرجال ما لم نسبر أغواره التي تعكس نشاطاته الفكرية والدينية، وكما لا تُسْبَر البحار والمحيطات بمسابير الأنهار ولا يُوزَنُ الذهب الخالص بميزان غيره من المعادن، وكذلك ليس من الصواب أن ننظر إلى "النورسي" بالمنظار نفسه الذي ننظر به إلى عظماء رجال الفكر والدعوة، فالنورسي شوق مُذّابٌ، وقلبٌ رغم قوته يسيل حباً، ويقطر لوعة، وروح خافق، ونفس مولَّهَةً، وشفقةً وإشفاقٌ على بني جلدته وأمته، وعلى بني الإنسانية قاطبة، إنه يحتضن الإنسان ويخاف عليه من سجون العذاب الأبدي في الآخرة، كما يحتضن أجزاء من نفسه وقطعة من كيانه، ولنستمع إليه وهو يفصح عن نفسه قائلا:

(لقد ضحيت حتى بآخرتي في سبيل تحقيق سلامة إيمان المجتمع، فليس في قلبي رَغَبٌ في الجنة، ولا رَهَبٌ من جهنم، فليكن سعيد يعني نفسه - بل ألف سعيد قربانا ليس في سبيل إيمان المجتمع التركي البالغ عشرين مليوناً فقط، بل في سبيل المجتمع الإسلامي البالغ مئات الملايين، ولئن ظل قرآننا دون جماعة تحمل رايته على سطح الأرض فلا أرغب حتى في الجنة، إذ ستكون هي أيضاً سجنا لي، وإن رأيت إيمان أمتنا في خير وسلام فأنني أرضى أن أُحْرَقَ في لهيب

جهنم، إذ بينما يُحْرَقُ جسدي يَرْفُلُ قلبي في سعادة وسرور) (62)

* * *

والجمال في " أدبيات **النورسي** " ليس صفة سلبية حيادية يمتلكها الجميل بلا فعل ولا إرادة ولا تأثير، بل هو طاقة حيوية إيجابية وقوة خلاقة فاعلة مؤثرة، وقدرة على الخلق والإبداع، فهو يظل يخلق من المرايا ما يشاهد فيها نفسه، ويتأمل محاسنه، فالجمال والخلق متلازمان لا ينفكان، فحيثما نجد جمالا فأننا نجد بإزائه مرآة تعكس محاسن هذا الجمال، وربما افتقدناه - أي الجمال - فلا نلتقيه إلا متجلياً في إحدى المرايا، والى هذا يعزي "النورسي " سر خلق العوالم والأكوان، وسر خلق الإنسان، فلولا الجمال التواق إلى مرايا يشاهد فيها تجلياته لم يكن هناك أكوان ولا عوالم ولا إنسان.

فالجمال إذن هو جوهر الحقيقة الكونية والحقيقة الإنسانية على حد سواء و الحقيقة الكونية والإنسانية هما المرآة العظمى لتجليات أنوار الحقيقة الإلهية، وما المعاني والأفكار والخواطر والإلهامات إلا مرايا تعكس أقباساً من نور أسماء الله الحسنى على قدر شفافيتها وصفائها وسعتها وأجلُّ هذه المرايا من المعاني المجردة التي تعكس أعظم التجليات إنما هي: الرحمة والصدق والشرف والإشفاق والمحبة وسائر المحامد والمناقب، والحياة نفسها ليست أكثر من عالم نوراني

(62) المصدر نفسه ص 457.

تَفَطَّرَ عنه قلب الجمال فهو لباب الأشياء، وكل شيء من بحره يستقي واليه يعود والجمال بعد ذلك كله هو موسيقى الخلق والإبداع التي تهدهد آلام مخاضات الوجود الكبرى المتعسرة في الفكر والحياة والسارية في مفاصل الأكوان لينشق قلبها عن دفقات متتالية لا تتوقف من العشق والشوق والطرب.

* * *

في منافيه القصية، ومنعزلاته في البراري وفوق قمم الجبال كان "الحق والجمال" يشغلان فكره، ويثيران فيه عالما فسيحاً وعميقاً من التأمل والنظر، أما نوازع الدم فقد غادرت حياته منذ أمد بعيد والى الأبد، ولم يكن تقشفاً ذلك الذي يفرضه على نفسه بل هو روح التقشف، وليس عطاء ما يجود به قلمه بل هو قلب العطاء وصميمه، وما يُفَجِّرُهُ بعزمه القوي ليس ينبوعَ أملٍ بعيد المنال بِقَدْرِ ما هو يقينٌ يحيا به ليله ونهاره، ويعيش به ولأجله، وإذا ما صام عن الكلام فأنه يفعل ذلك ليس برغبة في الصمت بل هو استرواحاً للروح واستنباتا لأزاهير الحكمة التي لا تُسْتَنْبَتُ إلا في مشتل الصمت، ونفسه الصافية المستقيمة كان لا بد لها أن تتحد وتتوحد بكل ما هو عادل وصادق في الإنسان والحياة، ولو قيل لمجتمع "الإيمان" أين ضميركم الخافق، وروحكم النابض لأشاروا إليه، وأَوْمَأُوا نحوه، وفي ذاته تقطن مقاومة عنيدة لا تعرف الاستسلام، ومن كان متين البناء، صلب

العود كالنورسي فأنَّى تستطيع سهام الأعداء أن تخترقه، إن إيمانه لا يقهر، ومواهبه الفكرية والوجدانية موضع ثقة كل من قرأه. أو عرفه عن كثب. وآلاف الأرواح التي تجوب العالم وهم يتناوحون تناوحاً مخيفاً باحثين عن الحقيقة وجدوا ضالتهم في أفكار هذا الرجل وفي تفسيراته المقنعة للغز الإنسان والكون والحياة، فأعماله الأدبية ذات موضوعات عظيمة تمس روح الإنسان وقلبه، وقد قدم في كتاباته إحساساً مُصَفًّى، وشعوراً مرهفاً حاداً أرهفته التجربة، وشحذته المعاناة، وبمزيد من الشفقة والإشفاق كان يقابل أعداءه، ويعالج كراهيتهم وأحقادهم، وهذا هو انتصاره وانتصار " رسائل النور " التي بات يقرأها اليوم الملايين من الناس، وهو لا يجد سقوطا أشنع للإنسان من أن تتجرد فلسفته في هذه الدنيا من أي معنى الهي، وعلى وفرة رجولته وصلابته لم يستطع أن ينفض عن كبده أحزاناً لازمته حتى موته، أو أن يمنع عينيه من أن تفيض بالدمع في مواقف الذكريات، وفي رحلته إلى " بارلا " بعد عشرين سنة من مغادرته لها نستمع إليه يقول:

(إيه "بارلا" .. يا شقيقة الروح .. ورفيقة الفؤاد .. وبستان الفكر .. وحقل الأشواق .. ومستودع الآلام .. ومزرعة الآمال

هاأنذا أعود إليك بعد عشرين عاما لألتقي في ربوعك بعض نفسي .. ولأعانق في أجوائك مُزَعَ الروح وبقايا الوجدان .. فوق كل سفح وقمة، وعند كل سهل وَحَزَنٍ، وعلى

كل شجرة وغصنٍ وزهرةٍ، وفي الشعابِ والمنعطفاتِ، وبين الحقولِ والبساتينِ).

ويخرج أهل "بارلا" كلهم شبابا وشيبا، رجالا ونساء وأطفالا، يستقبلونك ويرحبون بك وقد هاجت بهم الأشواق، وطفحت بهم المشاعر، فتدمع عيونهم فرحا، وتجيش عواطفهم محبة وإكراماً وتعظيماً .. وتمضي تشق طريقك بصعوبة بالغة بين جموع الأهالي إلى دارتك الحبيبة التي أمضيتَ فيها ثماني سنوات كاملات، تلك الدار، التي شهدت منابع فكرك الأولى، وحملتْ أثقال أحزانك وآنست لوعة غربتك، وهدهدت أوجاع وحشتك، وضمت حناياها عليك في ظلمات الليالي وهدوات سكينتها وأنت غارق في تأملاتك أو وأنت في صلواتك وذكرك وتهجدك.

وتتثاقل خطاك وأنت تقترب من بيت تلميذك القديم "مصطفى جاويش" وهو النجَّارُ الذي نَجَّدَ لك تلك الغرفة بين أغصان الشجرة التي كنت تقضي فيها ساعات العبادة والتأمل في فصل الصيف، وإذا بالبيت الحزين مقفر موحش بعد أن رحل صاحبه عن الدنيا يومَ كنتَ منفياً في "قسطموني" وقفل كبير معلّقٌ على باب البيت وكأنه يقول:

أيها المارّون .. مُرُّوا بسلام ولا تقتحموا أقفال الأحزان الكبيرة .. اتركوا أشجان هذا البيت المتفرد تنعم بالصمت والسكون ..

وتشعر وأنت تقف أمام البيت بجلال الآلام البشرية، وبجمال الحزن الصامت المهيب .. وتجهش بالبكاء .. وتغرق عيناك بالدموع . . .

ثم تمضي قلباً لهيفاً، وروحاً خافقاً، ونفساً مولّهةً نحو تلك "الشجرة" الطيبة المباركة التي آوتك يوم عزَّ المأوى .. وَضَمَّتْكَ حناياها يوم تجنبك الناس، وجافاك البشر، وَظَلَّلَتْكَ أغصانها وأوراقها من حرور الأيام وقساوة بني الإنسان، وفرشت لك خضرة قلبها، ومنحتك ربيع نفسها، في وقت كان شتاء بشرياً رهيباً يحيط بك من كل جانب، وصحارى إنسانية قاحلة جرداء تَهُبُّ بسموم أحقادها عليك من كل مكان .

وتقترب لحظة اللقاء .. وتسير حتى إذا أصبحتْ في متناول يديك، إذا بك تميل عليها وتحتضنها احتضانَ من يَضُمُّ إليه جزءاً من نفسه، وقطعةً من كيانه .. وتلتصق بها، التصاق العائد إلى حضن أمه بعد غياب طويل، وتتلمس جذعها وأغصانها وأوراقها بيدك وعينك وبكل جارحة من جوارح كيانك .. وتلصق بها وجهك المبللَ بالدموع، وأنت تغالب دمعك فلا تستطيع، وتخنق أزيز الحنين فيأبى عليك ويستعصي على رغبتك، فإذا بنشيجك يتعالى، وببكائك يرتفع .. ويرين على الحاضرين من حولك صمت خاشع وسكون أسيان .. وتصعد إلى غرفتك وحيداً متفرداً كما صَعَدْتَ إليها

قبل عشرين عاماً .. ويظل تلامذتك والناس معهم في مكانهم صامتين لا يريمون .. وتدلف إلى معتزلك القديم وتظل فيه مدة ساعتين، ويسمع الناس صوتا حزينا باكيا ينبعث من غرفتك، وأنت تستعيد ذكرياتك وأيامك التي أمضيتها فيها . . .

وتدمع أعينهم في صمت احتراما لآلام النفوس العظيمة التي لا يسعها الكون نفسه، ولا يقدر على استيعابها واحتوائها غير رحمة الله تعالى) [63]

***

(63) أنظر "رجل الإيمان" ص 120-121.